ميخائيل نعيمه

الآباء والبنون

تمثيلية في اربعة فصول

طبعة ثانية منقحة

مكتبة صادر
بيروت

١٩٥٣

مقدمة الطبعة الثانية

كتبتُ هذه الرواية على أثر تخرّجي من الجامعة في الولايات المتحدة صيف ١٩١٦ . وفي خريف العام عينه حملتها معي الى نيويورك حيث نشرَتْها مجلة « الفنون » في اعداد مسلسلة ثم أصدرتها في كتاب عام ١٩١٧ .

ونفدت الطبعة الأولى من زمان. فكنت اتهرب من اعادتها لأمرين : اوّلهما ان المسرح العربي خطا خطوة واسعة منذ العام ١٩١٧ . فلا بدّ من تعديل كبير في نهج الرواية . وثانيهما أن قسماً غير يسير من الحوار يجري باللغة العامية . والمشكلة في ضبط كتابة هذه اللغة ولفظها ما تزال قائمة كما كانت منذ اجيال واجيال . ومن ثم فتفكيري وذوقي هما اليوم غير ما كانا في العام ١٩١٧ .

إلاّ انني، وهذه الرواية محصيّة في عداد مؤلفاتي ، وموضوعها ما نصلت جدّته بعد ولن تنصل ، وفيها من دقيق التحليل والتصوير ما يشفع باماكن الضعف فيها ، عدت فنزلت عند رغبة الكثير من قرائي وألقيت عليها نظرة سريعة . فحذفت وأضفت

من غير ان أمسّ جوهر الموضوع او اغيّر في تصوير الأشخاص ومساق الحوادث . وما شئت ان اتمادى في التغيير والتبديل مخافة ان تخرج الرواية وكأنها مخلوق جديد .

توقفت طويلاً عند اللغة العامية وحاولت غير مرّة ان استعيض عنها بالفصحى . ولكنني ، في كل مرّة ، كنت اشعر كالولد يُكره على جرعة من دواء كريه الطعم والرائحة . فيعصاني القلم ولا يرضى أن يجعل امّ الياس – مثلاً – تقول : « ليتني أعرف كيف تسنّى لهذا الملعون ان يدخل عقل زينة فيقلب افكارها بطناً لظهر » بدلاً من قولها :

« لو بعرف بسّ ها اللعين – ها الابن ستين برطوشه – كيف دخل بعقلها وقَلَبْها خلفاني قدماني ؟ »

ذلك مَثل من أمثلة . امّا الكلام في ايّهما اكثر بلاغة : الفصحى ام العاميّة . فكلام لا طائل تحته . إذ ان لكلتيْهما عبقرية خاصة بها . فما أكثر المواقف – وعلى الأخص في الروايات من تمثيلية وغير تمثيلية – التي تبدو فيها الفصحى ركيكة ، والعامية بليغة . وعلى العكس .

إلاّ ان البلية ليست في اضطرار الروائي الى العامية في بعض المواقف . بل في اننا لا نستطيع ، بما لدينا من وسائل ، ان نضبط كتابة العامية ولا ان نعمّمها . فالعامية حتى في بلد

صغير كلبنان ، تختلف لهجتها باختلاف المناطق . وهي غيرها في سوريا وفلسطين والعراق ومصر وسواها من البلدان العربية .

وهكذا فاللجوء اليها يكرهنا ، رغم انوفنا ، على صبغ ما نكتبه بالأصباغ الاقليمية والطائفية .

ليست الفكرة التي تقوم عليها « الآباء والبنون » اقليمية او طائفية . إلاّ انها تغدو كذلك بفضل ما في الرواية من حوار عامي ، لبناني ، ومن أشخاص ينتمون الى طائفة دون سواها . فلمن شاء تمثيلها خارج لبنان، اذا هو أُوتي الذوق المسرحي ، ان « يترجم » العامية اللبنانية الى عامية القطر الذي يجري فيه التمثيل . وذلك من غير ان يمسّ الجوهر . ولعلّ الزمان الذي خلق لنا مشكلة العامية والفصحى يعود فيحلها من غير ان يخلق لنا ما هو أصعب منها .

بسكنتا – لبنان ٩ نيسان ١٩٥٣ م. ن.

مقدمة الطبعة الاولى

حنق البعض على الغرب لاعتقادهم ان المدنية الغربيـة نفثت في حياتنا الجميلة ، الطاهرة ، الرائعة بأمن تحت اجنحة الملائكة والقديسين ، روح فسقٍ وخلاعـة وكفر . وتغنّى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنـا : هيّا نعبد الغرب وكل مـا خلقه الغرب !

أما نحن فنرى من الأفضل ان نقف على الحياد بين اولئك وهؤلاء تاركـين لهم حق تسوية خلافهم بالمـدى والفؤوس اذا أرادوا ، على ان لا يعارضونا اذا نحن تجاسرنا ان نعـترف ولو بفضل واحد للغرب — وهو فضل آدابه على آدابنا .

إنّ ما يدعوه البعض « نهضة ادبية » عندنا ليس سوى نفحـة هبّت على شعرائنا وكتّابنا الناشئين من حدائق الآداب الغربية فدبّت في مخيلاتهم وقرائحهم دبيب العافية في اعضاء المريض بعد ابلاله من سقم طويل . والمرض الذي ألمّ بلغتنا اجيالاً متوالية كان شللاً أوقف فيها حركة الحياة وجعلها ، بعد عزها السابق ، جيفة تتغذى بها أقلام الزعانف المستعبَدين وقرائح « النظّامين »

والمقلّدين . أمـــا اليوم فقـد رجعنـا الى الغرب ، الذي كان بالامس تلميـذنا ، لنقتبس عنه امثولة جعلناها حجر زاوية « نهضتنا الأدبيـة » . وتلك الامثولة هي ان الحيـاة والأدب توأمان لا ينفصلان ، وان الأدب يتوكأ على الحياة ، والحيـاة على الأدب . وانه – وأعني الادب – واسع كالحيـاة ، عميق كأسرارهـا ، وهو ينعكس فيها وتنعكس فيه . لقد ادركنـا – بفضل الغرب – أن نظم الشعر ممكن في غير الغزل والنسيب ، والمدح والهجاء ، والوصف والرثاء ، والفخر والحماسة . لذلك اطربتنا نغمة بعض شعرائنا المحدثين الذين كانت لهم الجرأة على اقتحام تلك الحدود المقدسة . وانتقلت الينـا – بفضل الغرب كذلك – الرواية ، او ما يدعونه بالانكليزية « نوفل » وبالفرنسية « رومان » . وكنا اسبق الناس اليها . فوجدنا فيها مجالاً واسعاً لوصف الحياة والتأثير في العقول والقلوب بواسطة القلم ، وادركنا ان النـثر لا ينحصر في صف الكلام المسجع ، والاكثـار من الألفاظ الشاردة المدفونة في بطون المعاجم ، وتحبـير المقالات المملة في مواضيع مبتذلة . فقام بيننا بعض من جرّبوا ان يمثلوا حياتنا اليومية في روايات وطنية .

وهذه خطوة الى الامام .

لكن « نهضتنا الأدبيـة » لا تزال في القُمُط ، وما نطقت

بـه حتى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيـد اللسان ، محدود العواطف ، ضعيف العضل . وقد لا يحق لنا أن نلومها على هـذا الضعف . لكننا لا نكتم ان رجاءنا بمستقبلها يضعف عندما نراها قد أهملت باباً كبـيراً من ابواب الأدب لو خُيِّر الغرب بينـه وبين بقيّة الأساليب الكتابية لاختاره دونهـا . ونعني — الدراما .

رافقت الدراما الآداب الغربية منذ نشأتها حتى هذه الساعة فأصبحت ركناً من اركانها . وأقام لها الغربي المعاهد التمثيلية « التياترو » فأصبحت هـذه جزءاً من حياته اليوميـة كالمدرسة والبيت والكنيسة. ففي التياترو تجد نفسه الجائعة، المثقلة باتعاب العمل وهموم الحياة ، راحة وتعزية وقوتاً . من أوحال عيشته التي يشابـه صباحُها مساءها ويومُها أمسَها ترتفع روحـه الى عالم تجول فيه المشاعر البشرية بين جميلها وقبيحها ، وضعيفها وقويها ، وشريفها ودنيئها . إنه يبصر بعينه على المسرح بشراً مثله غائصين في معركة الوجود ، يكشفون له اسرار قلوبهم ومخبآت ضمائرهم فيجد في هذه الاسرار وبين تلك المخبآت قسماً من الذات التي يدعوها « أنا » ويستعين ببعضها على اصلاح نفسه والاضافـة الى خزانة اختباراته. يضم المؤلف والممثل قواهما — الأول بافكاره والثاني بصوتـه وحركاته — ليخترقا حرمـــة انفراده الذاتي ،

فيدخلان زوايا قلبه ، ويمسان كل اوتاره ، ويفتشان طيات ضميره ، ويحركان دولاب افكاره — وبالاجمال يوقظان فيه كل قوى الوجود . فيشعر انه كائن حي . ربّ كلمة وقعت في اذنه فاحتضنها للحال عقله واختمرت بها روحه ؛ او ربّ حركة من يد الممثل انتفض لها قلبه ، أو ربّ مشهد هزّه بكليته كما تهز العاصفة شجرة من جذورها .

لكن هذا التأثير في السامع والناظر لا يمكن احداثه إلاّ اذا كانت الرواية مشهداً حيّاً من مشاهد الحياة الحقيقية وكان الممثل قادراً على فهم افكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الافكار وتأدية تلك الغاية الى السامع بواسطة النبرات والحركات. ولذلك يتوكأ المؤلف على الممثل ، والممثل على المؤلف . وغير خفي أن افضل الروايات في يد ممثل ضعيف تُضيع كل قوتها وروتقها. وبالعكس — فالممثل الحاذق يُلبس احياناً ابخس الروايات حلّة جمال وقوة. ولذلك رفع الغرب شأن الممثلين كشأن المؤلفين ، فأجزل لهم العطاء ، وأحاطهم بالشهرة في الحياة ، وطيّب ذكرهم بعد الموت .

فماذا فعلنا نحن ؟

نحن لا نزال ننظر الى الممثل نظرنا الى « بهلوان » ، والى الممثلة نظرنا الى عاهر ، والى التياترو كما لو كان مقصفاً لا أكثر ، والى

التمثيل كأنه ضرب من العبث واللهو . ان شعبنا لم يدرك بعد اهمية فن التمثيل في الحياة لأنه لم يرَ بعد روايات تمثل أمامه مشاهد من حياة يعرف ألفها وياءها – لم يرَ بعد نفسه على المسرح . واللوم عائد على كتّابنا لا على الشعب . فجلّ ما قدّمناه حتى الآن الى الشعب من الروايات التمثيلية ينحصر في بعض روايات معرّبة أكثرها من سقط المتاع ، وكلها غريبة عنه ، بعيدة عن اذواقه ، قصيّة عن مداركه . لست أشك قط في اننا سنرى عندنا ، عاجلاً او آجلاً ، مسرحاً وطنياً تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية. انما يقتضي لذلك قبل كل شيء ان يحوّل كتّابنا انظارهم الى الحياة التي تكرّ حولهم كل يوم ، الى حياتنا بعجرها وبجرها ، وافراحها واتراحها، وجمالها وقبحها ، وشرّها وخيرها ، وان يجدوا فيها مواد لأقلامهم – وهي غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها .

يبشرنا الانقلاب الذي طرأ أخيراً على آدابنا بقدوم مسرح وطني وإن تكن العقبات في طريقه لا تزال كثيرة . من هذه العقبات وهْم اجتماعي ما برح راسخاً في عقول الكثيرين وهو ان التياترو يفسد الأخلاق الطاهرة – وعلى الاخص اخلاق البنات والنساء . رحمتك يا ربي ! ومنها فقرنا الى الكتّاب الروائيين والروايات التمثيلية الوطنية. لكن أكبر عقبة صادفتها

في تأليف هذه الرواية – وسيصادفها كل من طرق هـذا الباب سواي – هي اللغة العامية والمقام الذي يجب ان تعطاه في مثل هذه الروايات. ففي عرفي – واظن الكثيرين يوافقونني في ذلك – ان اشخـاص الرواية يجب ان يخاطبونا باللغـة التي تعودوا أن يعبِّروا بها عن عواطفهم وافكارهم ، وأنَّ الكاتب الذي يحاول ان يجعل فلاَّحاً أُمِّيّاً يتكلم بلغة الدواوين الشعرية والمؤلفـات اللغوية يظلم فلاَّحه ونفسه وقارئه وسامعه، لا بل يُظهر أشخاصه في مظهر الهزل حيث لا يقصد الهزل ، ويقترف جرماً ضد فنٍّ جماله في تصوير الانسان حسبما نراه في مشاهد الحياة الحقيقية . هناك أمر آخر جدير بالاهتمام وذو علاقة باللغـة العامية – وهو ان هذه اللغة تستر تحت ثوبها الخشن كثـيراً من فلسفة الشعب واختباراته في الحيـاة وامثاله ومعتقداتـه التي لو حاولت ان تؤديها بلغة فصيحة كنت كمن يترجم أشعاراً وامثالاً عن لغـة اعجمية . وربما خالفنـا في ذلك بعض الذين تأبطوا القواميس وتسلحوا بكتب الصرف والنحو كلهـا قائلين : ان «كل الصيـد في جوف الفرا» ، وأن لا بلاغة أو فصاحـة أو طلاوة في اللغة العامية لا يستطيع الكاتب أن يأتي بمثلها بلغة فصحى . فلهؤلاء ننصح ان يدرسوا حياة الشعب ولغته بامعان وتدقيق .

إن الرواية التمثيليـة ، من بين كل الأساليب الادبية ، لا

تستطيع ان تستغني عن اللغة العامية . انما « العقدة » هي في اننا لو اتبعنا هذه القاعدة لوجب ان نكتب كل رواياتنا باللغة العامية، اذ ليس بيننـا من يتكلم عربية الجاهلية او العصور الاسلاميـة الاولى ، وذاك يعني انقراض لغتنا الفصحى . ونحن ابعد الناس عن ان نبتغي هذه الملمة القومية . فاين المخرج ؟

عبثاً بحثتُ عن حل لهذا المشكل. فهو اكـبر من أن يحله عقل واحد . وجلّ ما توصلت اليه بعد التفكير الطويل هو أن اجعل المتعلمين من اشخاص روايتي — كداود والياس وزينـة وشهيدة وناصيف بك — يتكلمون لغــة معربة . والاميـين — كأم الياس — يتكلمون اللغة العاميـة . أمـا خليل سماحه — وان لم يكن أمياً تماماً — فقد رأيت من الاحرى ان اجعله يتكلم العامية لأنها توافق طباعه ومداركه . وكذلك مومى بك في حديثه مع ام الياس وفي بعض المشاهد التي تليق بها العامية اكثر من الفصحى . لكنني اعترف باخلاص ان هذا الاسلوب لا يحل « العقدة » الاساسية . فالمسألة لا تزال بحاجة الى اعتناء اكبر رجال اللغة وكتّابها .

والمشكل الآخر الذي وقفت أمامه حائراً سائلاً هو ضبط كتابة اللغة العامية بطريقة تزيل الالتباس والابهام وتؤدي اللفظ المقصود . تركت أمر اللهجة التي تختلف كثيراً باختلاف المناطق

الى فطنة الممثل وحذاقته . لكنني أحجمت تهيباً عن أن أضع لأجل هذه الرواية وحدها اصطلاحات لضبط الكلام العامي . ونحن بحاجة ماسة الى هذه الاصطلاحات اذا احببنا ان نقترب من الشعب ونهذبه باقلامنا. انّ العامة تستعمل حروفاً لا وجود لها بين حروف الهجاء المعروفة مثل .E. O الفرنسية والجيم المصرية، وتلفظ القاف في اكثر الأحيان كالهمزة . فيجب ان نضيف الى لغتنا بعض اصطلاحات تقوم مقام هذه الحروف . انما يجب ان تكون هذه الاصطلاحات عمومية كي لا يحدث تبلبل وتشويش حيث نقصد انسجاماً ووحدة . فمن يقوم لنا بهذه المهمة ؟ لو كان لنا مجلس ادبي او شبه «اكاديمي» لألقينا على عاتقه هذا الأمر . أما ولا شيء من ذلك عندنا فهل تصدق الاحلام وتحمل الغيرة على اللغة العربية وآدابها بعض ادبائنا في الشام ومصر على تأليف هيئة دائمة تعنى بترقية اللغة والمحافظة عليها وتكييفها حسب حاجات الزمان والاحوال ؟

أُفضّل ألاّ أقول شيئاً عن أشخاص الرواية او عن الرواية ذاتها اكثر من اني حاولت ان ألج فيها جانباً ضيّقاً من موضوع حيوي وواسع في حياة الامم جمعاء – وحياة شرقنا على الاخص. وأعني الخلاف الأبدي بين الآباء والبنين والتباين الدائم بين القديم والحديث. واذا لم يكن نصيبي منها سوى دفع بعض

كتّابنا الأوفر مقدرة مني في معالجة شؤوننا الاجتماعية على تأليف الروايات التمثيلية فقد نلت غايتي .

اذا شئنا ان نرفع آدابنا من المستنقعات التي تتمرغ فيها الآن فعلينا ان نسعى منذ اليوم لوضع أُسس متينة للمسرح العربي وذلك بتربية اذواقنا التمثيلية ، وتعزيز الرواية الوطنية ؛ حتى اذا نهضنا كانت « نهضتنا » نهضة جبار أفاق من نوم طويل ، لا نهضة عاجز فتح عينه ليرى الموت امامه .

نيويورك — ١٩١٧

الاشخاص

أم الياس سماحه	: ارملة بطرس بك سماحه ، في الخامسة والخمسين
الياس سماحه	: ابنها البكر ، في الثلاثين
خليل	: ابنها الاصغر ، في الرابعة والعشرين
زينة	: ابنتها ، في العشرين
داود سلامه	: معلم في مدرسة داخلية ، في الثلاثين
المعلمة شهيدة	: اخته ، في الثانية والعشرين
موسى بك عركوش	: كاتب في المحكمة ، في الخامسة والسبعين
ناصيف بك	: ابنه ، شويعر ، خطيب زينة ، في الاربعين

الزمان : مطلع القرن العشرين

المكان : مدينة صغيرة في لبنان

الفصل الاول

«ردهة الاستقبال في بيت سماحه ، فيها ديوان الى اليمين وآخر الى اليسار وبعض الكراسي المبعثرة بدون ترتيب بينها ثلاثة مقاعدها من حرير . في الوسط طاولة عليها قنديل بترول بغطاء احمر. على الحائط الايسر صورة بطرس بك سماحه في اطار كبير مذهب . على بقية الحيطان اسلحة قديمة . سيوف وعدة بنادق وخناجر ورمحان وصور قديسين وملائكة . في الحائط الايمن نافذة واسعة وتجاهها في الحائط الايسر باب . في حائط الصدر باب يؤدي الى الخارج . الفصل صيف . النهار أحد . والوقت العصر . الياس جالس الى الطاولة يكتب . امامه دواة ، حواليها كتب وجرائد واوراق مرمية بدون ترتيب . يطرق الباب » .

المشهد الاول

الياس — داود

الياس ادخل . ادخل . « يتجه نحو الباب ويفتحه فيرى داود » أهلًا ، أهلًا بصديقي داود . والحمد لله أن تنازلت فشرّفتنا بزيارة . لقد آن لهـذا البيت ان يعرفك وتعرفه .

داود « يدخل على مهل متلفتاً حواليه » بيت ؟ ! هـذا متحف عاديات .

الياس وانا واحد منها . « يتكلف الضحك »

داود أنت أقدمها ، واثمنها من غير شك . وما معنى هذه السيوف والخناجر والبنادق ؟ ما عهدي بك تعشق الحرب ومظاهرها الى هذا الحدّ .

الياس بل انني اكرهها الى أقصى حدود الكراهية .

داود اذن كيف ترضى ان تعيش في ظلها ؟

الياس تفسير ذلك عند الوالدة . فهي أدرى مني بتاريخ هذا السيف او تلك الطبنجة او ذلك الرمح . وادرى بالغاية من عرضها على جدران بيتها . ولو أنها كانت

الآن هنا لأخذت بيدك وقادتك الى كل قطعة بمفردها وراحت تسرد عليك تاريخها . والويل لك اذا أنت لم تصدق كل ما ترويه لك . فأنت اذ ذاك العدوّ اللدود ، بل الشيطان الرجيم .

داود لأنصرف إذن بسلام قبل أن تعود أمك مخافة ان تطردني طرداً . « همساً » أم هي الآن في البيت ؟

الياس من حسن حظك أنها ذهبت مع شقيقتي في زيارة . لا خوف عليك منها . فانت غريب . والخوف كل الخوف على من كان مثلي، وكان مكرهاً ان يعيش عيش المومياء في متحف للعاديات . « بحرقة » اني لأكاد أختنق يا داود . اختنق في دنيا تعيش في ماضيها وعيونها مكفوفة عن الحاضر والمستقبل . حتى بت أمقت الماضي ، وامقت الحاضر ، وأمقت المستقبل . وبتّ أحسب الحياة وزراً ، وأحسب وجودي في هذا الكون ضِغثاً على ابّالة . لكنّ قلبي ينفطر على فتاةٍ كأختي زينة. أما رأيتها بعد ؟

داود لا . ما رأيتها . ولماذا ينفطر قلبك عليها ؟

الياس لأنها جوهرة نادرة في يد تاجر أعمى .

داود ومن هو التاجر الاعمى ؟

الياس — أمّي . إنها امرأة عنيدة لا تطيق ان يعاندها أحد في شيء . واولادها على الاخص . فهي تطلب منا طاعة عمياء . ولا ترضى أن يكون لأيّنا رأي غير رأيها . رأس الحكمة ، في شرعها ، طاعة البنين والبنات للآباء والامهات .

داود — وايّ بأس في ذلك إذا كانت الامّ امرأة صالحة ؟

الياس — الصلاح وحده لا يكفي يا داود . بل لا بدّ مع الصلاح من فطنة — من ذوق — من دراية . وأمّي تكاد تكون من هذا القبيل رعناء .

داود — مثلًا .

الياس — مثلًا . جاءها رجل معروف في هذه المدينة بمكره ودهائه وانحطاط أخلاقه . واسمه موسى العركوش . جاءها يخطب زينة لابنه ناصيف . وابنه هذا شويعر من الذين قيل فيهم « وشاعر من حقه أن نصفعه » . رجل تخطى الاربعين ولا مهنة له ولا حرفة ولا وظيفة . فقبلت أمي بدون تردّد . ولماذا ؟ لان آل العركوش من اعيان هذه المدينة . ولأن كلا الوالد والولد يحمل لقب بك . فهما « من خلّ بقلنا » — من طبقتنا ...

داود العلهما ، فوق ذلك ، من الأثرياء ، من كبـــار الملاّكين ؟

الياس يتظاهران بالثروة وهما ، على ما أسمع ، يعيشان بالدّين .

داود واختك – أراضية هي ؟ اما اعترضت بشيء ؟

الياس أختي تكاد تكون راهبة في دير . فهي تجهل العالم واحواله وطرقه كل الجهل . ورأس الحكمة ، في اعتقادها، طاعة الوالدين. أما قالت أمّي إنّ زواجها من ناصيف العركوش أمر صواب ؟ إذن هو صواب .

داود وأنت ؟ أما اعترضت ؟ امـا حاولت إقناع أمك او اختك ؟

الياس انت تهذي يا صديقي. ولا عجب فأنت تجهل طباع امي. ولا تعرف أختي. أقول لك ان هذا البيت أصبح لي قبراً ، وحياتي فيه أصبحت جحيماً . فلا تلمني اذا أفقتَ غداً وأخبرك مخبر أنّ صديقك اليـاس سماحه قد شنق نفسه في السنديانة التي عند مدخل المدينة .

داود « يضحك هازئاً » سينقطع بك الحبل . ما من مشنقة تستطيع ان تحمل جباراً مثلك ...

الياس لا تهزأ يا داود . فما أنا بمازح. لقد سئمت الحياة . سئمتهـا حتى الغثيان . سئمت ترجيعها وترديدها ولفّها ودورانها لغير ما طائل .

« نروح ونغدو لحاجاتنـــا
وحاجة من عاش لا تنقضي . »

داود « مازحاً » ما دمت تنطق بالشعر فلا خوف عليك من المشنقة. بل الخوف على المشنقة منك. «يضحك»

الياس «بشيء من الحدّة» دعنا من المزح يا داود. وهات كلمني بجد : ما معنى حياة شقاؤها أضعاف اضعاف هنائها. وهي تبتدىء في ظلمة الرحم وتنتهي في ظلمة اللحد ؟

داود « بجد » أما ان شقاءها أضعاف أضعاف هنائها فقول يحتـــاج الى ميزان أدقّ بكثير من الذي تملكه وأملكه، او يملكه اي الناس. وأما انها تبتدىء في ظلمة وتنتهي في ظلمة فلا تنسَ ان هنالك بروقاً تخترق الظلمتين .

الياس إنها لبروق خلّب .

داود عندك لا عندي . ولا عند الملايين المتعلقين باذيال الحياة، فما يطيقون التخلي حتى عن دقيقة منها بارادتهم.

الياس	ولكنهم سيرغمون في النهاية على التخلي عنها قسر اراداتهم .

داود	بارادة مَن ؟

الياس	لست أدري .

داود	ولعل هذا الذي لا تدريه انت تدريه الارادة التي تسير بنا من ظلمة الرحم الى ظلمة القبر ، وترينـــا بين الظلمتين بروقاً تحبب الينا الحياة .

الياس	أمقتنع أنت ان بعد الموت حياة ؟

داود	انا مقتنع بان الارادة التي أحاطتنا بكل هذه العجائب ثم جعلتنا نشعر بها ونندهش لها وندفع في التفتيش عن غاياتها — ان تلك الارادة لن تخذلنا في النهاية اذا نحن أحسنّا تفهمها والاسترشاد بنورها . ومن ثم ... « يقطع حديثه اذ ينفتح الباب بغتة وتدخل منه ام الياس ومن بعدها زينة »

المشهد الثاني

الياس — داود — أم الياس — زينة

ام الياس	أوفْ . أوفْ . هالشّوبْ « تروّح بمروحة بيدها » شي بيسلق « الى الياس » كيف اجاك قعود انت

طول النهار بالبيت ؟ – يمَّا بعدك بتشارع ربنا ؟
« مشيرة الى داود » مين حضرة الشاب ؟

الياس — هذا صديقي المعلم داود يا أمي . هو يعلم في مدرسة عين الدلبة الداخلية .

ام الياس — « بكبرياء » والنعم .

داود — لي الشرف يا خالتي أم الياس .

الياس — « مشيراً الى زينة » وهذه اختي زينة يا داود .

داود — لي الشرف يا ست زينة .

ام الياس — « بعد أن تجلس » مين حضرة الشاب ؟ « تروِّح »

الياس — قلت لك انه المعلم داود .

أم الياس — « بغضب » فهمت انه المعلم داود . لكن فكري – مينو . شو دينه – روم ؟ مورانى ؟

داود — انا يا خالتي ، لا روم ولا ماروني .

ام الياس — بلا دين لكن – هرطوقي ؟ . آ . الرحمة والسترة منك يا ربي . شو هالجيل الكافر .

داود — لست بكافر يا خالتي أم الياس . أنا اؤمن بالله ورسله وانبيائه من كل قلبي .

ام الياس — يي – نجينا يا ربي ! مسلم ويهودي ! لكن انت من اللي صلبوا المسيح .

داود اريد ان أقول اني اعتبر يسوع وموسى ومحمداً على السواء . في العالم إله واحد – وهو إله الجميع . ليس مسيحياً ولا مسلماً ولا يهودياً .

ام الياس بحاكيك بالشرق بتجاوبني بالغرب « تروّح وقد فرغ صبرها » وين بتصلي؟ بكنيسة الروم يا الموارني يا البِستوَنْد « تعني البروتستانت » يا بالجامع ؟

داود اصلي في قلبي يا خالتي – لا في كنيسة الروم ولا الموارنة ولا البروتستانت ولا في الجامع .

ام الياس شو لنا بالكنايس لكن اذا كنا بدنا نصلي بقلوبنا ؟ شو لنا بالحوارنة والمطارنة ؟

داود من لا يقدر ان يعبد ربه الا في الكنيسة فليذهب الى الكنيسة . ومن لا يقدر ان يخاطب خالقه سوى بلسان كاهن او شيخ فليتبع كاهنه وشيخه. اما انا فأراني في غنى عنهما .

ام الياس وبتقول انك بتعتقد بالمسيح كمان ؟

داود نعم .

ام الياس وعالكنيسة ما بتروح . وخوري مطران ما بتعرف؟

داود نعم .

ام الياس وبعدك بتقول انك مسيحي ؟

داود نعم .

ام الياس « وقد فرغ صبرها » بي نجينا يا ربي! « تنهض غاضبة وتخرج من الباب الى اليسار . سكوت . ام الياس ترجع بعد قليل . الى داود » شايف ها الصورة . « تشير الى صورة زوجها » هَيْ صورة المرحوم بطرس بَيك. قتل بزمانه عشرين درزي بهالسيف هادا وعشر متاولي بهالسيف هادا . الباشا كان يحسب له حساب . كان يفرّق عقل عالدني كلها . لا مسلم ولا درزي كان يسترجي يتنفس بوجهه . مع هذا كله بحياتي وابد زماني ما شفته يوم حدّ قعد بالبيت وما راح عالكنيسة ...

الياس « يقاطعها » انا قد اخبرته عن ذلك يا امي .

ام الياس خبّرته ؟ خبرته عن خالك شاهين والكلّ ؟ هاداك كان زنده يهز الارض . وحده قتل أربعين كردي بخنجره . شايف هالرمح « تشير اليه على الحائط »

الياس « يقاطعها » قد اخبرته عن خالي شاهين كذلك يا امي .

ام الياس الله ينجينا شو هالجيل الكافر . « الى داود » ابني. بدك اكثر من ابني؟ ما بيروح عالكنيسة إلا بألف

عصا . اليوم عاندني وعاندني و كسر كلمتي وما راح .
مثل ما يكون بطرس بيك سماحه مش بيّه . لكن
خليل – رضا قلبي عليه – بيروح عالكنيسة كل عيد
وكل حد « تخرج »

المشهد الثالث

الياس – داود – زينة

الياس « الى داود بعد سكوت قصير » هل رأيت بعينك وسمعت باذنك ؟

داود نعم – قد سمعت ورأيت . لكنني لم ارَ ما يصدع العزم ولم اسمع ما يوسل اليأس الى القلب .

الياس والله لقد صدق المثل « الحرب بالنظارات هيّن » . اتعني أنك لو كنت مكاني لكنت تحاول ان تغيّر معتقدات امك القديمة ، وتعلّمها مبادىء جديدة كما لو كانت طفلة صغيرة ؟

داود لم افقد بعد عقلي لأحاول المستحيل . لكنني اعجب اذ اراك ، مع كل درسك وفهمك ، لم تدرك حتى الآن ان اختلاف الآباء والبنين في الاذواق والميول

والمعتقدات أمر طبيعي جدّاً . ولولاه لما كان ما ندعوه تقدماً .

الياس وما حيلتك بام تطلب الطاعة العمياء من بنيها حتى وان ادى ذلك الى كارثة لها ولهم ؟

داود قيل : « اكرم اباك وامك » . وما قيل : « أطِع أباك وامك حتى وإن كانا على ضلال . » إن تكن طاعة الحق فضيلة، فعصيان الباطل فضيلة أكبر. والباطل قد يأتيك من امك مثلما قد يأتيك من الغريب . وما عليك في الحالين إلا ان تحاربه بكل ما اوتيت من قوة .

الياس لو شئت ان امتثل لارشادك لتحوّل هذا البيت الى ساحة حرب .

داود وأيّ بأس في ذلك ؟ أليست الحياة كلها حرباً ؟ ولو لم تكن حياتنا حرباً دائمة على الجهل ، على الظلم ، على الفقر، على الضعف ، على الذلّ لما كانت حريّة بان نحياها . انما نتعشق الحياة لا كما هي ، بل كما نريدها ان تكون . وفي ذلك سرّ تعلقنا باذيالها . ولن ننفك في حرب معها حتى يكون لنا ما نريد .

الياس أأحارب أمي ؟

داود بل حارب ما فيها من ضلال بما فيك من حقّ .

الياس وهل حاربتَ والديك ؟

داود « بصوت منخفض توافقه تنهيدة » لقد اراحاني من الحرب اذ ادركتهما المنون قبل ان ادركت سنّ الرشد ... « سكوت »

الياس «هازئاً» حبذا لو نتبادل الاوضاع فتأخذ على عاتقك تربية أم الياس وآخذ على عاتقي تربية تلاميذك . إذن لضحكت ملء شدقيّ عندما أراك مشمراً وهارباً من وجه ام الياس لا تلوي على شيء « يضحك . زينة تبتسم ابتسامة مكبوتة »

داود «ضاحكاً» بل أنت الذي ينهزم مشمراً عن ساقيه .

الياس لا تنسَ يا صديقي ان ام الياس تمثل جيلاً — بل اجيالاً — من العقائد والخرافات والاوهام المتأصلة في النفوس تأصل الجذور في التراب . وهذه ليس من السهل اقتلاعها . والأغلب انها تقضي عليك قبل ان تقضي عليها . عد الى رشدك يا داود . فانت لن تقتلع جذراً حتى ينبت مكانه ألف .

« وهل يبلغ البنيان يوماً تمامه
اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟»

داود — ليهدم الهادمون ما شاؤوا . فذلك لن يثنيني عن البناء . ومن ثم فلي شغف بالهدم مثلما لي شغف بالبناء . والذي لا يهدم لا يبني .

الياس — اهدم ما شئت . ولكن حذار ان تطمرك انقاض ما تهدم . واني لأخشى ان يكون ذلك نصيبك في النهاية ، وان لا استطيع انتشالك. وهناك الطامة الكبرى « يضحك » كأني بك تحاول نقل البحر في قمع بلوطة . وذلك هو الجنون بعينه . أليس كذلك يا زينة ؟ « زينة تحمرّ خجلًا وتُطرق »

« خليل يغني خارج الباب بصوت أجش : «جنّـ ـنـ ـتيـ ـنا ... يا حلـ ـوه ـ يا بيـ ـضا وجنـ ـتينا ... » يفتح الباب بيساره ويقف مخاطباً رفيقاً خارجاً ـ .. « بشوفك الليلة بقهوة الجسر . آ ؟ الساعة ثمانية . أوعى تنسى ! سلـّم ! » يدخل مغنياً « يا حلـ ـوه ـ يا بيـ ... » يقف في الباب منبهتاً وقد رأى الحضور داخلًا » .

المشهد الرابع

الياس – داود – زينة – خليل

خليل هُوْبْ ... «واضعاً يده على فمه» يا عيب الشوم. بَرْدُون. بردون. مِلّ بردون مِسيه. «الى زينة» بشوفِك بالبيت – ما رحتيش تزوري سعادة البيك اليوم ؟ قه. قه. قه. «يستخرط في الضحك» عريسك عريس يا أختي ما شا الله ! الله يخلّـي لك ياه. ضحكنا عليه ضحك اليوم حتى ما عاد لنا ضلاع . قه . قه . قه . «ضارباً كتف الياس بطرف عصاه» بتعرف قهوة الجسر يا الياس ؟

الياس أعرفها .

خليل اجتمعنا هونيك ثلاثة : العبد الفقير وحنا سركيس ومخايل عون – ثلاثة الله يكون بالعون – من اللي نزعوا الدبس عن الطحينة. شوَيّ وهو فايت ناصيف بيك . مصنّف قصيـــدة طويلة عريضة . وجابي يقرالنا هيه. سمعناله سمعناله تانعسنا. ساعتها غمزني مخايل عون. هات يا صبي خمسانية . هات غيرها .

تفضل يا ناصيف بيك . ناصيف بيـك لِمَّن شاف بنت نوح طوى قصيدته وحطّها بجيبتـه . واول قدح . ثاني قدح . ثالث قـــدح — ناصيف بيك دارت معه الأمور . دقّ بوكر يا شباب . ناصيف بيك رفع ايده قبل الكل . اول فتّ . ثاني فتّ . ناصيف بيـك ربحان . ثالث فت . رابـع فت — ناصيف بيك بعـده ربحان . حنا سركيس قبّعت معـه الامور . فتّيت الورق . قال مخايـل عون « باس » ناصيف بيـك — باس . سركيس غمزني وشلح ليرة . ناصيف بيك قال — هي ليرتين بعد. سركيس شلح ثلاثة. ناصيف بيك خمسة. سركيس عشرة . ناصيف بيك بالآخر قبّعت معه. شال كل شي ربحه وكل شي كان معه — تلاتين ليرة — وشلحها عالطاولة. سركيس شافو. فتح ورقو البيك: اربعة اسّ . ساعتها فتح ورقو سركيس : ريّا . بنت . أعرج. عشرة تسعة . كلهم ديناري . قه . قه . قه .

الياس وهذا ما يسمّونه في لعبة البوكر ؟

خليل ستريت فلوش. بيا كل الاربع اسوس. قه. قه. قه. « يستخرط في الضحك » يا ريتك شفت البيك هاك

الساعة. قه. قه. قه. جنس اللون ما بقى في وجهه. اصفر مثل الزعفران . بعلمك كان يضحك وينظم اشعار . بدقيقه تشّ مثل التلـّيعـه . وما حاجت البيك مصيبته — ابن عون صار يتمرقع عليه والكل: انظم لنا قصيدة عن البوكر يا ناصيف بيك . هاتوا عرق . جابوا عرق. عندي — عندك . البيك نسي التلاتين ليرة وصار يغني أشعـــار . أنا وسركيس فِلـّينا . والبيك وابن عون قاعدين . عنـدي — عندك فِلـّينا والبيك يغني :

البوكر قرَّح لي قلبي　　قلبي قد قرَّح لي البوكر
أَسٌّ اس اس اس　　قدّرت الربح بها مسوكر
لكن ماذا يجديك الأس　　اذا كان الحـــظ ...

الياس　شعر بديع ! أخانته القريحة في القافية الاخيرة ؟

خليل　بيوصل لهون وبيضرب الطاوله بايـده — لعن الله القوافي . تركناه وبعده بيفتّش عاقافية . قه. قه. قه . هِيقْ ! البوكر قرح لي قلبي . قه . قه . قه. لو خسرلو شي ماية ليرة بفرد قعده ترى عا اي لحن كان بيغني ؟ قه . قه . قه .

«ام الياس تدخل فجأة من باب اليسار»

المشهد الخامس

الياس – داود – زينة – خليل – ام الياس

خليل　　بردون. مل ّبردون ، ماما ، كنتِ نايمه ووعّيتك ؟ يلعن ساعة الشيطان .

ام الياس　　« بغضب » انت بتوعّي الموتى من قبورهم . عا أيش ها الضحك كله ؟ ما بسمعك إلا بتضحك. « الى زينة » وانتِ أيش بعدك قاعدي تعملي هون ؟

« زينة تنهض للخروج ولا تخرج »

خليل　　كنت عن خبّر الياس وحضرة الافندي « مشيراً الى داود » شو الاسم بالخير ؟

داود　　داود سلامه .

خليل　　عبد ربك العفو ! المعلم داود من مدرسة عين الدلبه – مش هيك ؟ والنعم والسبع تِنْعام . سمعت . سمعت بصيتك . مش حضرتك اللي طالع بديانه جديده ؟ « الى امه » كنت عن خبّر الجماعه عن ناصيف بيك. خسر تلاتين ليره اليوم عافرد قعده. وطرق سكره يا امي عالفكر .

ام الياس — انت لو بتضبّ لسانك ورا سنانك ما كان في احسن منك . بزماني ما شفت اطول من لسانك واكتر من حكيك. شو عن تقول انو ناصيف بيك خسران بالقمار وسكران والله اعلم ايش بعد ؟ انا بعرف ناصيف بيك وبعرف انُّو ولا بزمانو لعب بالقمار ولا بزمانو شرب قدح عرق. وبعد هدا وكله حلّك تفهم ان ناصيف بيك خاطب اختك . وانُّو مش لازم تفتح تمك وتحكي عليه قدام الغريب والقريب فهمت ؟

خليل — قه . قه . قه . ما ابسط قلبك يا امي ! ناصيف بيك لا بيشرب ولا بيلعب بالقمار ؟ ! قه. قه . قه . شو اذا كان خاطب اختي بدّك اذا شفته سكران قول شفته رايح عالكنيسة ؟ واذا شفته عن يلعب بالقمار قول شفته عن يصلي ؟ والله فصل .

ام الياس — « بغضب كلي » انا قلت لك انُّو ناصيف بيك بزمانو لا شرب ولا مسك ورق قمار بايده . وحاجتك لت وكتر حكي ، اذا كان شرب لو مصّة عرق، شو هالمصيبه ؟ كل الشباب بيشربولهم قدح .

خليل — لكن يا امي ناصيف بيك ما شربش مصّه بس —

شرب نصف رطل يمكن .

ام الياس سكّر تمّك وانصرف من وجهي بقا ! قلت لك ناصيف بيك ما بيشربش . وبعدك بتقول لي انو سكران ؟

خليل بردون ، مامان ، خطيت ومنك المسامحة. سكوزمي «يحني رأسه . يدخل ناصيف بيك من باب الصدر متمايلاً. في يده عصا وطربوشه فوق اذنه اليسرى » .

المشهد السادس

الياس – داود – زينة – خليل – ام الياس – ناصيف بك

ناصيف «يبرم عصاه في يده ويرندح » : البو كر قرّح لي قلبي . قلبي قد قرّح لي البو كر . اين خليل ؟ اين هذا المغضوب عليه ؟ ألم اقل لك ان ناصيف بيك لا تعصاه قافية ؟ وجدتها وجدتها ! غصباً عنك وغصباً عن سيبويه . لا تصدّق ؟ اسمعوا اذن : البو كر قرّح لي قلبي . قلبي قد قرح لي البو كر . هل سمعتَ في حياتك ألطف من هذا القول يا الياس ؟ وانتِ يا امرأة العم المحترمة ، هل سمعت قط شعراً

كهذا الشعر ؟ قلبي قـد قرَّح لي البوكر . أسٌ .
اس . اس . اس . أعني اربعـة أسوس . أسٌ .
أس . أس . أس . قدَّرت الربح بهـا مسوكر .
أربعة أسوس. من لا يخاطر بتلاتين وفي يده اربعة
أسوس ؟ لكن اسمعوا البقية . قدَّرت الربح بهـا
مسوكر. لكن ماذا يجديك الأس اذا كان الحظ . . .
من منكم يقدر ان يجد قافية لهذا البيت . من منكم
درس العروض ؟ أرِنا فصاحتك يا اليـاس . او
انت « مشـيراً الى داود » يا حضرة الافندي هنا
هل درست جنابك العروض ؟

داود	درسته ونسيته .

ناصيف	انت لا نفع منك . لا في العـير ولا في النفير .
وانت يا الياس اعطني قافية لهذا البيت وانا اتخلى
لـك عن بكويتي : لكن ماذا يجديـك الأس اذا
كان الحظ . . . تكلموا – ما لكم سكوت ؟ آهَا !
الشعر صعب وطويل سلـّمه . فاسمعوا اذاً « يعيد
الابيات من اولهـا » لكن ماذا يجديك الاس اذا
كان الحظ . . . هل وَجَد . . . احد منكم القافية ؟

خليل	معوكر !

ناصيف « مبهوتاً . يضرب الطاولة بيده » لا وحقّ ربي . لقد سرقتها مني . سرقتها يا ملعون . انت لص . انت سرّاق . والا من اين اتيت بها وانا صرفت ثلاث ساعات ابحث عنها حتى وجدتها ؟ لا . انت لص . يا خيبة املي فيك .

خليل « مستغرقاً في الضحك » قه . قه . قه . لا وحياة رأس البيك . قه . قه . قه . قَدحْتُها من ضميري وشلتها . قه . قه . قه .

ناصيف « بغضب كلّي » لا والله انت سراق والف سراق. انت احطّ من سراق . انت تسرق من الشاعر قوافيه . تسرق جواهره . انت كمنت لي في الطريق فسمعتني ارددها والآن لا تخجل ان تدعي انك وجدتها . ومَن انت لتعرف شيئاً عن الشعر وقوافيه ؟ أميٌّ بَربريّ همجيّ لا تعرف الكوع من البوع . ولا تقدر ان تعرب ضرب زيد عَمراً .

داود الا تقدّر ان قد حصل توارد خواطر بينكما ؟

ناصيف توارد خواطر ؟ بيني وبين هذا الابله ؟ وانت من انت لتحكم في امور كذه ؟ هل جنابك نفطويه ام سيبويه ام الخليل بن أحمد ؟ توارد خواطر ؟ والله

فصل ! وماذا تعرف حضرتك عن توارد الخواطر ؟
ماذا تعرف عن الشعر ؟ اعرب لنا – أبي كوى الحمارَ .

الياس « آخذاً بيد ناصيف بك » لا تنسَ ان المعلم داود ضيفي وانه في بيتي . واذا اهنته فكأنك اهنتني .

ناصيف إن كان في بيتك او في بيت ربنا – من اقامه قاضياً بيننا ؟ اقول إن اخاك سرق القافية مني – فدعه يدافع عن نفسه اذا كان بريئاً . وما دخلك او دخل سواك في هذا الأمر ؟

الياس « واضعاً يده على كتف ناصيف بك » ألا تظن أن الافضل أن « تعطينا مدور زنارك » ؟

ام الياس «تستشيط غضباً » الياس ! إلزم أدبك وسكّر بوزك ! انت اعطينا مدور زنارك – انت وصاحبك – مينك انت في ها البيت تخمين ؟ « الى زينة وقد استخرطت في البكاء » وانتِ شو ضربتك السخنة على قلبك بعدك قاعدي هون ؟ ليش ما بتنقبري على اوضتك ؟ فزّي بها الدقيقة وسكّري تمّك – لا عشتِ تبكي ان شاء الله . « زينة تخرج باكية » أوْ هوْ . كل مِنْ صار بدّو يمشي براسو بها البيت

« الى خليل » انقلع انت مـن وجهي والكلّ .
كلـكم انقلعوا من وجهي . « خليل يخرج من باب
اليسار . داود يأخذ طربوشه ويخرج من باب الصدر
قائلًا لالياس : « اتأمـل ان اراك غداً » . الياس
يشيّعه الى الباب ويخرج » والله فصل . كل واحد
صار بدو يعيش براسو . لا تواخذني ياناصيف بيك .
تفضل استريح ياعيب الشوم منّك .

الستار

الفصل الثاني

«غرفة المعلم داود . باب في الصدر وآخر الى اليمين . عند الحائط الى اليسار سرير مركب من ثلاثة صناديق بترول فوقها الواح خشب مغطاة بلحاف على طرفه الواحد مخدّة . ومثله عند الحائط الى اليمين . في منتصف الغرفة طاولة بسيطة عليها دواة وكتب واوراق مرتبة وبقربها كانون فيه بعض جمرات . ارض الغرفة عارية « مدقوقة عدسة » لكنها نظيفة كل النظافة . على الحائط الشرقي رسم تولستوي وتجاهه على الحائط الغربي رسم المسيح . شهيدة جالسة على كرسي بقرب الطاولة وفي يدها مكوك وبكرة خيطان بيضاء . على الطاولة قنديل كاز نمره ٣ . الساعة التاسعة مساء . الفصل شتاء . »

المشهد الاول

شهيدة — الياس

شهيدة « تتثاءب ثم تفرك عينيها » حُوّ . شوهـا البرد! عجب ! ماذا اعاق داود الى الآن ياترى؟ هل حدث له مكدر لا سمح الله ؟ « سكوت. تسمع طرقة على الباب فتركض بسرعة لتفتحه » رجع والحمد لله ! « تفتح الباب وترجع الى الوراء مذهولة . يدخل الياس وعلى رأسه قبعة من الفرو مغطاة بالثلج . ينفض قبعته ومعطفه خارجاً »

الياس « نافخاً في يده » ليلة سعيدة .

شهيدة سعيدة ومباركة . تفضل .

الياس اين المعلم داود ؟ أليس في البيت ؟

شهيدة استدعاه بعض جيراننا منذ ساعتين وحتى الآن لم يرجع . وقد وعدني ان يعود قبل الثامنة . والساعة الآن هي التاسعة. اخاف ان يكون قد ضلّ الطريق في هـذه العاصفة . هل لك ما تطلبه منه ؟

الياس احبّ ان اراه لأمر يتعلق بي وبه . اتظنين انه يرجع قريباً ؟

شهيدة كان يجب ان يرجع من زمان . واذا لم يكن قد حدث له حادث فسيكون هنا بعد قليل . ألا تريد ان تجلس ؟ اعذرني سآتيك بكرسي . « تهم بالخروج »

الياس لا بأس . سأجلس على السرير اذا أذنتِ لي .

شهيدة خذ حريتك .

الياس « جالساً على السرير » الستِ المعلمة شهيدة اخت المعلم داود ؟

شهيدة نعم . انا هي .

الياس عجباً . لم اركِ قبل اليوم هنا . العلك لا تسكنين في هذه المدينة ؟

شهيدة انا اعلّم في مدرسة ابتدائية، ولا اتمكن من زيارة اخي الاّ في عطلة الصيف أو عيد الفصح أو عيد الميلاد . وقد جئت اليوم لأمضي معه عيد الميلاد .

الياس ألا تخافين ان تبقي وحدك في البيت في مثل هذه الليلة ؟

شهيدة وممَّ ، أو ممّن اخاف ؟

الياس من اللصوص . وما ادراكِ اني لست لصاً ؟

شهيدة وماذا يطلب اللص هنا ؟ ومن ثم فأنا لم اسمع بعد بلصّ خرج من بيت بطرس سماحه .

الياس هل انتِ ساحرة ام نبيّة ؟ لنفرض انك سمعتِ اسمي من داود . لكن من اين عرفتِ اني انا هو الياس بطرس سماحه بعينه ؟

شهيدة « ضاحكة بلطف » لست ساحرة ولا نبيّة . أيصعب عليك ان تعرف كيف اهتديت اليك ولم اركَ من قبل ؟ الأمر بسيط . داود كتب الي عنك مراراً ووصفك لي وصفاً دقيقاً . حتى انه ارسل اليّ صورة الوثيقة التي كتبتها تعهداً على نفسك وكل من ذهب مذهبك :

« بتاريخهِ نحن الموقعين في ذيله قد تعهدنا ان نضع حدّاً لحياتنا قبل بزوغ شمس العاشر من شهر آب» الخ . « ضاحكة بلطف » عندما قرأت هذه الوثيقة استلقيت على ظهري من الضحك . لا تؤاخذني — هل في ذلك ما يجرح احساساتك ؟ ألم تضحك انت عندما كتبتها ؟

الياس « بخجل » وماذا يضحكك فيها ؟

شهيدة « باسمة » ربي ! ماذا يضحكني فيها ؟ يضحكني ان

شاباً مثلك عاش مقدار ما عشت ولم يدرك حتى الآن جمال الحياة . انا أغبط نفسي على وجودي في هذا العالم واشكر خالقي من اعماق قلبي . إنّ امراض الجسد وآلام النفس واوجاع القلب تمرّ في حياتي كسحابة صيف . الحياة جميلة . والذين لا يرون هذا الجمال يجب ان يُبحث عن السبب في نفوسهم . ما ضرّ الشمس لو شتمها الاعمى ؟

الياس آه لو ادري ما هو هذا الجمال الذي تتكلمون عنه كلكم ايها المتعلقون باذيال هذه الدنيا : جمال الحياة، لذة البقاء ، غبطة الوجود – هذه كلها كلمات جميلة رنّانة ، لكنها فارغة خداعة .

شهيدة حبذا لو كنت فيلسوفة لأحدثك بلغة الفلاسفة .

الياس بل اشكري ربك لأنك لست بالفيلسوفة . فما تاه في مفازات الحياة مثل الفلاسفة .

شهيدة تعني ان كثرة التفكير في الحياة وألغازها لا تزيدها إلاّ تعقداً ؟

الياس اعني ان من أخذ الحياة على علاّتها أنعم بالاً ممن يحاول ان يأخذها على هواه . ولعلني من المغضوب عليهم . فلا استطيع ان اتقبلها على علاّتها .

شهيدة — امّا انا فأتقبل علقمها بالشكر طمعاً بشهدها . واشهى شهدها عندي أن أعمل وأن اقول ما يجلب السرور والراحة لغيري . ذلك هو سروري الأكبر .

الياس — هنيئاً لكِ ولأخيك داود . فهو يحاول أن يقنعني بمثل القول الذي تقولين . ويا ليته كان في مستطاعي ان ارى الحياة بعينيك أو بعينيه .

شهيدة — « تجفل » ذكرتني بداود . لقد تأخر كثيراً . وتأخّره يقلقني . « تتنهد » لا تؤاخذني .

الياس — ويقلقني كذلك . « سكوت »

شهيدة — عجبت لشاب مثلك يفتش عن غاية له من وجوده وشقيقته تُكره اكراهاً على الزواج من رجل لا يصلح ان يكون لها خادماً . أفما تطوعت لانقاذ شقيقتك ؟ لقد اخبرني داود عنها .

الياس — « يتنهد » وقد جئت هذه الليلة لأستشير داود بشأنها .

شهيدة — تبّاً لهذه العاصفة . افما لها من نهاية ؟ ان قلقي على داود يزداد . « بعد سكوت » كأنني اسمع وقع اقدام . « تُنصت »

الياس — بلى . هنالك حركة خلف الباب .

« شهيدة تنطلق انطلاق السهم نحو الباب واذ تفتحه

ترجع الى الوراء مذعورة اذ ترى داود عاري الرأس مبعثر الشعر ، مغطى بالثلج ، والدم يسيلُ من صدغه الأيسر وقد جمد بعضه على اذنه وخدّه وذقنه، في يده اليمنى منديل ملطخ بالدم وقد ضمّه الى عينهِ اليمنى »

المشهد الثاني

شهيدة -- الياس -- داود

شهيدة — « تطرح نفسها عليه مذعورة » داود ... داود ... ويلي ... ويلي ! « تبكي معانقة اخاها »

الياس ماذا جرى ؟ ماذا ارى ؟

شهيدة « تنفض الثلج عن رأس داود بيديها وتنزع معطفه عنه » ويلي ! ويلي ! من تعدّى عليك؟ أرني . أرني جروحك « تجذبه الى القنديل وتفحص جروحه » ربي ... من اين آتيه بطبيب ؟ الياس افندي دخيل جريك. دخيل ربك حكيم . حكيم ! داود . داود ! هل تتألم كثيراً يا روح اختك ؟ « تركض الى الغرفة المجاورة »

الياس	الذنب ذنبي والله يا داود . انا المخطىء . إلعنّي واشتمني كما تشاء . انا استحق . استحق . استحق .

داود	وما هو ذنبك ؟

الياس	جئت الليلة خصيصاً لأحذرك من هذا الامر . لكني تأخرت في مجيئي فكان ما كان . يا للهمجية ! يا للبربرية !

شهيدة	«ترجع وفي يدها لفافة شاش تضمد بها جراح اخيها» ويحهم . ويحهم ! من ذا الذي اراد قتلك وانت لا تؤذي احداً ولا تبتغي الشر لأحد ؟ دعني ارَ عينك . هل تضررت كثيراً ؟

داود	لا بأس . لا بأس يا أختي . المسألة بسيطة . جرحان خفيفان . لا حاجة الى طبيب . عنايتك تكفيني .

شهيدة	هل يضايقك الكلام ؟ اخبرني ماذا جرى . لا تخف شيئاً . اخبرني بكل شيء بالتفصيل . يا للعار ! يا للشناعة !

داود	«يجلس على الفراش ويتكلم بضعف . الياس وشهيدة يصغيان بانتباه كلّي لقصته» ارسل سمعان البَكر ابنه يستدعيني اليه ليستشيرني في امر دَينٍ له عند ناصيف العركوش .

الياس ناصيف بيك ؟ وكم مبلغ الدين ؟

داود ١٠،٥٤٥ قرشاً .

الياس ناصيف بيك مديون لسمعان البكر بعشرة آلاف قرش وامي لا تزال تحسبُه رجلاً غنياً ؟ !

داود استحق الصك ولكن « البيك » رفض دفعه او دفع فائدته او تجديده قائلاً إن كلمة شرف منه تكفي .

الياس « متهكماً » شرف ؟ ! اي شرف هو شرف هذا الشويعر المخبول ؟

داود وسمعان البكر رجل مسكين انفق في اميركا نصف عمره حتى جمع هذا المبلغ من المال . هو شيخ شبه مقعد. عنده زوجته واربعة اولاد عليه ان يقوم بأودهم . وهو يخشى ان يرفع دعواه الى المحكمة لانه -كما قال- « ابو ناصيف بيك رجّال حكومة » فلا يكتفي بان يسلبه ماله وحقه. بل ربما قلب الحق عليه وزجه في السجن- وانت تعرف بساطة هؤلاء الناس الذين لم يدخلوا محكمة في حياتهم .

الياس صحيح . صحيح . انهم يخافون المحاكم خوف الفأر للهرّ .

داود انا اعرف سمعان البكر جيداً لان اثنين من اولاده

في صفي . لذلك التجأ هذا المسكين اليّ . قلت له اني لست محامياً انما اقدر ان اهديه الى محامٍ يتكل عليه لتحصيل دراهمه . وقد نصحت له ان يعيد الطلب على ناصيف بيك مرة ثانية ، حتى اذا رفض رفَع دعواه الى المحكمة لان الامر لا يحتمل تأجيلاً.

الياس برافو... برافو... والله خففت عني نصف الحملة . تابع . تابع .

داود خرجت من عند سمعان البكر فوجدت العاصفة قد اشتدت فلم اخف لأني احب العواصف . ما كدت اقطع الجسر حتى رأيت شخصاً خرج من تحته وناداني « بأرضك » ! وقفت لأسأله من هو وماذا يريد فلم اشعر الا بلطمة على وجهي اطارت الشرر من عينيّ .

شهيدة اما عرفته من صوته ؟

داود لكني لم اقع . ظننت اولاً ان ضاربي قد اخطأ غرضه وانه كان يقصد سواي لأني فحصت افكاري فلم اذكر لي عدواً يحب الايقاع بي على تلك الصورة . صحت بالرجل : انا داود سلامه . من تطلب ؟ قال — « انت لا غيرك » .

شهيدة لعنة الله عليه .

داود وانقضّ عليّ بعصا في يده . حينئذ عيل صبري ولم املك نفسي من الغضب . « بحرارة » تلقيت العصا بهذه اليد وقابلته بهذه فتمدد للحال على الثلج كالقتيل . انحنيت فوقه لآخذ العصا من يده وإذا باخرى تسقط على رأسي من خلف . ثم اخرى بين كتفيّ .

الياس يا لهم من اوغاد ! كانوا يريدون قتلك .

داود ولا ازال في حيرة الى الآن من الصوت الاول . كأنه صوت اخيك خليل تماماً حتى اني لما سمعته احببت ان اناديه باسمه . لكن لساني لم يطاوعني . لا ادري كم بقيت هنالك مطروحاً على الثلج انما اعلم اني افقت شاعراً كأنّ الدم في عضلاتي تجمد او كاد . لكني وصلت الى هنا بدون عناء كبير . انا الآن مرتاح ، لا تخافي يا شهيدة ، غداً سأنهض معافى تماماً .

الياس « بدهشة وغضب » خليل بين هؤلاء الزعران !! لعنه الله ما اخبثه وان كان أخي ! اتدري ماذا قال لي هذا الشيطان اليوم ؟ قال لي « الياس ! شوف هادا صاحبك المعلم داود — انا بحبه وبعزو مثلك واكثر . شاب آدمي . حبّوب . لكن أحسن

قله تايبطّل يلعب بعقل زينة . هادا عريسها طالع دينه منّه ولولاي بدو يستأجر قوبة زعران تايلقطوه شي ليله ويطعموه بدن مليح – هات يخلّص. هات ما يخلّص » هـذا ما قاله لي هذا الداهيـة . وانا لبساطة قلبي او عماوته ، صدقته . انما جرّبت ان اقنعه انك بريء من هذه التهمة. لكنه لم يصدقني.

داود أتظن ان الذين هجموا عليّ الليلة هم ناصيف بيـك وزمرته ؟

الياس لا شك في ذلك . ناصيف بيك ربمـا لم يشترك في الامر فعلاً لكن التدبير تدبيره بدون اقل شك .

داود وما ثأره عندي وأنا لا اكاد أعرفه ؟

الياس لله ما ابسطك ! أوَلم تدرِ بعد ما جرى في هذين اليومـين ؟ زينـة أرجعت الى ناصيف بيـك خاتم الخطبة – لا بل طرحته في وجهه .

داود « بدهشة ممزوجة بفرح » زينة ؟!

الياس زينة . نعم زينة . من أين اتتهـا تلك الجسارة – لا ادري. لكنها – كما فهمت من امي – تخاصمت معه لاجلك .

داود « بدهشة كلية » لاجلي ؟!

الياس	نعم لاجلك . ناصيف بيك اخذ مرة يشتمك أمامها وكانت منفردة معـه . فاستشاطت للحـال غيظاً وقالت له بجرأة أن لا حق له ان يشتم غائباً وعلى الاخص رجلاً غريباً عنه . وان عنـدك من الفهم اضعاف اضعاف ما عنده . وعندما توغل في شتمك قالت له : إن خنصره – تعني خنصرك – بيسواه – تعني خطيبها .

داود	« كأنه لا يصدق » أهكذا أجابته ؟

الياس	نعم . نعم . فأمَرَها ان تصمت للحال . فسألتـه بأي سلطان يأمرها بالصمت . فأشار الى الخاتم على اصبعها وقال انه خطيبها وان له الحق ان يأمرهـا بألا تتكلم عنك او عن سواك حتى بألا تفتح فمها على الاطلاق الخ الخ .

شهيدة	يا للوقاحة !

الياس	فنزعت زينة للحال خاتم الخطبة من اصبعها – وهل تصدق ؟ – رمته في وجه ناصيف بيك – ويقولون إنه أصاب انفه وجرحه – قائلة : « اذا كان هـذا ما يعنيه خاتمك فألف سلام عليك وعليه » وخرجت من الغرفة . ولذلك نالت من يد أُمي ضرباً مبرحاً .

شهيدة — يا حرام !

الياس — أُمي ، طبعاً ، لا تزال تعمل جهدها لتسوية الخلاف ليتم الاكليل في الاعياد القادمة كما دبرت ذلك من زمان. ناصيف بيك وأبوه يتظاهران بأنهما متأثران من الاهانة لكنهما في الواقع قد نسياها من زمان ويعملان الآن يداً واحدة مع أُمي لاجبار زينة على القبول وزينة تقول : «الموت او الدير ولا ابن العركوش» وقد جئت الليلة اولاً لاحذّرك من اشراك ناصيف بيك — وقد تأخرت في ذلك — وثانياً لاستشيرك في واسطة نخلّص بها زينة من يدي امي التي لو الحّت لاستطاعت ان تجبرها على القبول وان تجبر الخوري كذلك على القيام بصلاة الزيجة . فما رأيك ؟

داود — هل من سبيل للاجتماع بزينة ؟

الياس — اقدر ان آتي بها الى هنا . فهل ذلك مناسب ؟

داود — في هذه العاصفة ؟

الياس — نعم — في هذه العاصفة .

داود — ألا خطر عليها ؟

الياس — لا خطر عليها اذا كنتُ معها .

داود اذا كان هكذا فاذهب ولا تطل غيابك .

الياس « لابساً قبعته ومعطفه » انتظرني إذن. سأرجع عن قريب . « يخرج »

المشهد الثالث

شهيدة - داود

شهيدة ها كها - حكاية حياتنا الشرقية . هي هي . ابنة يزوجها ابواها ولا يسألان رأيها في الامر كأن ارادتها لا تقدّم ولا تؤخر شيئاً على الاطلاق .

داود نعم. هذه هي حكاية حياتنا في هذا الشرق . لكنها يجب ان تتغير . وستتغير ان شاء الله . ولا بد ان تتغير لأن ابناء هذا الجيل قد ولدوا لعالم غير الذي ولد له آباؤهم .

شهيدة الافضل ان لا تتكلم عن ذلك لئلا تتهيج . كيف جرح رأسك الآن ؟

داود كنت اسمع ان العرق مطهّر للجرح . فهل لك ان تأتيني بقليل من العرق ؟ لا ادري اذا كان حانوت العين لا يزال فاتحاً الى الآن . هذا اقرب

حانوت الينا. اذا وجدته مقفلاً فاسألي بعض الجيران. ولكن الاحسن ان تنتظري الى ان تهدأ العاصفة .

شهيدة لا تخف عليّ من العاصفة . اضطجع على السرير ريثما اعود . «تخرج»

داود «يجلس على السرير ساكتاً ورأسه بين يديه . بعد برهة قصيرة يسمع طرقة على الباب» اليـاس ؟ ادخل ! «تتكرر الطرقة فينهض داود نحو البـاب ويفتحه . وللحال يرتمي الى الوراء مذهولاً وهاتفاً» ست زينة ؟ «زينة تدخل وعليها رداء ثقيـل دافىء مغطى بالثلج وقد لفّت رأسهـا بحرام من الحرير الاسود» .

المشهد الرابع

داود — زينة

زينة «ناظرة الى داود» قضي الامر اذن . فلم يعـد من حاجة لمجيئي. اعذرني يا معلم داود يجب ان ارجع من حيث اتيت . «تهمّ بالخروج»

داود ست زينة . ست زينة — ما الخبر ؟ حلّفتك بربك ألاّ تخرجي الآن . لي إليك حاجة . ابقي هنا ولو

دقيقة . لا اكاد اصدّق عينيّ . ماذا جاء بكِ الى هنا في مثل هذه الساعة وهذه العاصفة ؟

زينة — جئت لاحذّرك من مكيدة يدبّرها لـك بعض الرعاع . واراني قد تأخرت . تهت عن الطريق في هذه العاصفة . بقيت نحو الساعة ابحث عن مقرّك . وقد اهتديت اخيراً . لكن قضي الامر . فاعذرني ودعني اذهب . احببت ان اكفّر عن ذنب قديم فاقترفت ذنباً جديداً . «تهم بالخروج»

داود — أَلا تريدين ان تجلسي ؟ بالله اجلسي واخبريني ما هي المكيدة التي احببتِ ان تنجّيني منها .

زينة — سمعت اخي وابن العركوش يتشاوران في ان يوقعا بك الليلة . وقد قرّرا ان يستأجرا لتلك الغاية بعض الرعاع. لقد اختارا هذه الليلة حتى اذا استغثتَ لا يُسمع صوتك في العاصفة . واذا سال منك دم يغطيه الثلج المنهمر من السماء. وقد جئت لانذرك بأن لا تخرج الليلة. لكنني تأخرت. والذنب ذنبي لا ذنب العاصفة .

داود — وكيف تجاسرتِ ان تخرجي في ليلة كهذه ؟ ألم تخشي العاصفة ؟

زينة　　كلا .

داود　　أَلم تخشي امك ؟

زينة　　خرجت وهي في زيارة بعض الجيران .

داود　　أَلم تخشي القيل والقال لو رآكِ احد ؟

زينة　　لا يهمني قيل الناس وقالهم .

داود　　وكل ذلك لاجلي... اي لكي تنذريني من الوقوع في المكيدة ؟

زينة　　نعم . لكي انذرك من الوقوع في المكيدة .

داود　　من اجلي اقتحمتِ العاصفة ، ومن اجلي لم تبالي بكلام الناس ، ومن اجلي احتملتِ الضرب .

زينة　　اي ضرب ؟

داود　　أَلم تضربك امك بسببي ؟

زينة　　من اين علمت ذلك ؟

داود　　من الياس .

زينة　　هل اخبرك بكل شيء ؟ وانت من اجل مَن اشبعوك ضرباً واثخنوك جراحاً ؟

داود　　لولاكِ ولولا الياس لما عرفت السبب الى الآن . ضربوني تعدّياً وظلماً . واذا كان السبب كما يقولون فما أَحب جراحي إليّ .

زينة ماذا تعني ؟

داود اعني اذا كانوا ... اعني اذا ضربوني لانهم يحسبون اني سبب خصامك مع ناصيف بيك فانا قابل بجراحي بكل سرور .

زينة واذا كانوا ضربوك لانهم ... لانهم حسبوا ... لانهم ظنوا اني ... اني احب ... انك تميل الي وانا اميل اليك ؟

داود ذلك مستحيل .

زينة مستحيل . « تطرق الى الارض » نعم مستحيل... وهم لجهلهم لم يعرفوا انه مستحيل. وانا لجهلي كذلك لم اعرف انه مستحيل . « تنهض » اعذرني على ما لحق بك من الاوجاع بسببي وانت بريء منّي . سأجتهد ان اكفّر عن ذنبي . احب ان اشكرك قبل ان اخرج – ولا اقدّر اني سألتقيك بعد – احبّ ان اشكرك على امرٍ ربما عددته طفيفاً . لقد فتحت عينيّ فأبعدتني عن هاوية ، ولكنك ادنيتني من اخرى افظع منها واعمق . وانا ، مع ذلك ، اشكرك جداً . وداعاً .

« تهم بالخروج »

داود « آخذاً بيدهـا » ست زينة . ست زينة . دقيقـة بعد . دقيقة .

زينة « متجهة نحوه » ماذا تطلب مني بعد ؟

داود ماذا تعنين بالهاوية – الهاوية الثانية التي ادنيتكِ منها ؟

زينة ما النفع من كل هذه الاسئلة وانت لا تقـدر ان تغيّر ما قد تمّ ؟

داود بل سنغيّـر كلّ ما لا بدّ من تغييره .

زينة الهاوية التي خلصتني منها – هي ناصيف العركوش. أتذكر يوم كنت في بيتنا للمرة الاولى ؟ اتذكر حديثـك مع الياس عن الآباء والبنـين ؟ كنتُ جالسة اسمع وأَعي ولا اظنك شعرت بوجودي في تلك الغرفة . من ذلك اليوم تفتحت عيناي قليـلًا وزياراتك التاليـة زادتني احتقاراً لنفسي . فكانت النتيجة اني رفضت ابن العركوش . رفضتـه ولا ادري مـاذا افعل بنفسي الآن . كنت من قبـل جاهلة عمياء راضية بالقليل . واليوم لا ازال جاهلة ولا ازال عمياء لكنني لا ارضى بما كنت راضيـة به من قبل . وما اطلبه الآن لا اقـدر ان اظفر به . لذلك اقول اني كنت سعيدة بجهلي . وانك

ابعدتني عن هاوية لتدنيني من اخرى .

داود وما هو الذي تطلبينه الآن ولا تقدرين ان تحصلي عليه ؟

زينة اطلب المستحيل . وما كنت ادرك ذلك حتى هذه الليلة . نعم . اطلب المستحيل . فبالله لا تسألني بعد عن شيء. اذا كنتُ لا اعرف شيئاً على الاطلاق فأنا اعرف على الاقل حقيقة واحدة – وهي ان موتي الآن خير من حياتي. لذلك سأموت. وداعاً.

« تهم بالخروج »

داود « يوقفها آخذاً بيدها » ست زينة ! انتِ تموتين ؟ فمن يستحق ان يعيش اذن ؟

زينة الا تقدر ان تدعوني باسمي فقط ؟ هل يصعب عليك ذلك ؟

داود ست زينة ... زينة . لماذا تذكرين الموت ؟

زينة ولأجل من اعيش الآن ؟ انت تقول ان السعادة في ان يعيش الانسان لاجل سواه – وانا لاجل مَن احيا ؟ مَن يهمه وجودي وبقائي ؟

داود زينة ! عيشي لنفسك تعيشي لاجل الغير. عيشي لاجل اخيك الياس فهو يحبك .

زينة	اني اكـره نفسي اذا بقيت منفردة كما انا الآن . واخي الياس لا يحتاج اليّ ... فلمن ... لمن ... لمن يعيش من كان مثلي ؟ «تبكي»

داود	زينة . زينة – عيشي – عيشي لي ... عيشي لاجلي . لاجلي انا ... هل تصفحين عن جسارتي ؟

زينة	لاجلك ؟ لماذا تهزأ بي ؟ «تبكي» ألأني ابنة جاهلة ؟ انا اعرف اني حمقـاء . اني جاهلة . اني بسيطة . فلماذا تذكـّرني بذلك ؟

داود	زينة ! اقسم لك بمن جمعني بك هذه الليلة عن غير عهد اني احتاجك . احتاجك . احتاجك . وحياتي ليست كاملة بدونـك . ادركت ذلـك من يوم رأيتـك . لكنني حتمت على نفسي السكوت لاني ظننت ان روحك لم تستيقظ بعد. ظننت اني لست اهلاً لحبك . ظننت ان حياتك كاملة بدوني. خفت ان اعرض عليكِ نفسي والعقبات في سبيـل اتحادنا كثيرة .

زينة	داود ! هل تعني ما تقول ؟ بربك ؟ ألست تهزأ بي ؟ لا ؟ فإذن «تنطرح نحوه ثم ترجع الى الوراء» لا . لا . انت تهزأ .

داود	وحياة زينة لا أهزأ — وهل هذا وقت هزء ؟

زينة	انت — انت — داود الذي كنت اراه في احلامي ولا اجسر ان اتلفظ باسمه حتى امـام نفسي وفي خلوتي. انت الذي فتحت عينيَّ فأبصرت بعض ما عميت عنه قبلًا . انتَ الذي أنرتَ وجودي بنور جديد. انت. انت ... لا تغريني ؟ انت لا تزدري بجهلي وبساطتي وضعف عقلي ؟ انت تحبني ! ؟ وهذا ليس حلماً . «ترتمي بين ذراعيه»

داود	احبك يا زينة . احبك يا زينة . «يقبّلها» وهـذا ليس حلماً بل يقظة .

زينة	أتؤمن بالله ؟

داود	أؤمن ؟

زينة	لا تضحك. اترى هذا الخنجور ؟ «تخرج خنجوراً من جيبها» أتدري ما فيـه ؟ سمٌ ناقع . كرهت نفسي وحياتي في المدّة الاخـيرة حتى عزمت ان انتحر . كرهت ابن العركوش كرهـاً لا كره فوقه. واحببتك حباً لا ادري اذا عرف مثله احدٌ قبـلي . لكنني لم اجسر ان اعترف به حتى امـام نفسي . نظرت الى الهوّة بيني وبينـك — لا هوّة

المال والنسب – بل هوة الادراك والمعرفة .
فوجدت تقريبنا من المستحيل . ولم يبقَ لي في الدنيا من غاية سوى الاقتراب منك . وإذ اقنعت نفسي ان لا امل بتحقيق هذه الغاية حصلت على هذا الخنجور وخرجت هذه الليلة وبقصدي ان لا ارجع الى العالم ابداً . لا ادري ماذا اوقف يدي عن تجرع ما في هذا الخنجور . حاولت ذلك مراراً . وكل مرة كان شخصك يقف امامي فتجمد يدي . اخيراً صلَّيت لربي من اعماق قلبي وسألته ان يهبني جرأة وقوة لآتي هذه الليلة واراك قبل ان اموت، واسمع منك هاتين الكلمتين : « احبك يا زينة » . اتخذت أمر المكيدة عذراً لمجيئي في مثل هذه الساعة . وقد سمعت ما اشتهيت فأشكر الله . قل مرّة بعد – احبّك يا زينة !

داود   احبك يا زينة ! أحبك يا زينة ! أحبك يا زينة! ولو كنت اخشى ان يكون حبي شقاء لكِ .

زينة   حبك شقاء لي ؟ ! « تضحك »

داود   « مشيراً الى أثاث غرفته الحقيرة » انظري . تأملي. هل ترضين بالفقر بعد الغنى ؟

زينة	هس ّ. هس. هس. لا تفه بكلمة واحدة بعد عن هذا. ما احسن الفقر. ما الذ البرد. ما اشجى صفير العاصفة اذا كان هنا « تشير الى قلبها » ما يدفىء وما يغذّي. ما عليك الآن الا ان تنجيني من أمي. عجباً. لماذا اخافها؟ عقلي يدلـّني وقلبي يدفعني الى ان اكشف لها كل ما في قلبي، وأن لا اهتمّ لغضبها. الا أنني أخافها. ارضعتني خوفها مع اللبن.

داود	سنفعل ما في وسعنا بمساعدة الياس لنتغلب على امك. هل من خوف عليكِ اذا عدت الليلة الى البيت؟

زينة	قلت لك اني اخاف امي. لكن لتفعل أمي وكل الاقدار ما تشاء. ألم تقل لي « احبك يا زينة »؟ « تعانقه » هل تعود فتندم على ما قلته لي الليلة؟ هل تعود فتنفر مني لجهلي وبساطتي؟ لا؟ ما احسن الحياة معك يا داود! « شهيدة تدخل فجأة »

المشهد الخامس

داود — زينة — شهيدة

شهيدة	« نافضة عن ثيابها الثلج وناظرة بدهشة الى زينة » هاك العرق فكيف جراحك الآن؟

داود	دعي العرق لمن يشرب العرق. فقد نسيت جراحي. لقد بعث الله اليّ بدواء انجع من العرق . وهـذا هو « يشير الى زينة » هذه هي الستّ زينة — او زينة — اخت الياس، يا شهيدة . فاقبليها كأخت . « الى زينة » وهذه اختي يا زينة — فاقبليها كأخت لك كذلك .

شهيدة	« تهجم لمعانقتها » ليكن اسمك مهما كان . يكفيني ان داود يحبّ هذا الاسم وصاحبتَه. لذلك سأحبك انا كذلك . اخلعي . اخلعي شالك ومعطفـك . « تنزع الشال عن رأسها » اجلسي. فسأذهب وازيد النار لتدفأ اصابعك النحيفة. في غرفتنا بردٌ اكثر مما في الخارج . الم تشعري بذلك يا زينـة ؟ اجلسي يا حبيبتي . احبّ ان اتعرف اليك جيداً . « تخرج »

زينة	اختـك مجبولة باللطف مثلك . لماذا لم تقل لي إن عندك اختاً ؟

داود	لم يتسنَّ لي ذلك قبل اليوم .

شهيدة	« ترجع وبين يديها الكانون وقد زادته فحماً » اين الياس ؟ هل رجع ثم عاد فخرج ؟

زينة	اي الياس ؟ أخي ؟

شهيدة   الياس أخوك . إي . ألم تأتي الى هنا برفقته ؟

داود   لا . زينة اتت وحدها . وقد نسيتُ ان اخبرها ان الياس كان عندنا الليلة . وانا ارسلناه لاستدعائها لنتخابر معاً في أمر نجاتها من ابن العركوش .

زينة   ارسلتَ الياس لاستدعائي لتتخابروا في امري ؟ اتعني انك كنت تهتم بي قبل ان عرفت حبي لك ؟ ما ارق قلبك يا داود !

داود   بدأت اهتم بك من يوم رأيتك للمرة الاولى. « يسمع وقع أقدام وراء الباب » هذا هو الياس . « يذهب نحو الباب »

المشهد السادس

داود – زينة – شهيدة – الياس

الياس   « يفتح الباب » ها ! انتِ هنا وانا افتش عنك ؟ اتدرين ان امي وخليلاً قد خرجا يبحثان عنكِ كذلك ؟ الخادمة في البيت قالت لي انكِ هربتِ وان امي كانت « تلاطش خيالها » . رَجَعَتْ الى البيتِ ولم تجدكِ فاستدعت خليلاً للحال ليذهب

معها للبحث عنكِ . خرجتْ في هذه العاصفة وهي تقول انها اذا وجدتك « بدها تقيم القيامة » .

داود اجلس . اجلس وتـدفأ الآن . هاتي كرسيـاً يا شهيدة . سنقف على التفاصيل فيما بعد .

الياس فيما بعد ؟ أُحب الآن ان اعرف ما جرى .

داود زينة سترجع معك الى البيت . فهل تكفل ان امك لا تصبّ سخطها عليها ؟

الياس ماذا تعني ؟

داود اعني — هل تكفل ان امك لا تضربها ؟

الياس خذ لك الف كفالة كهذه الكفالة .

داود إذن سألقي اتكالي عليك ؟

الياس ستلقي اتكالك عليّ ؟ وهل تظن انك تهتم بها اكثر مني — وانا اخوها ؟

داود ربما كنت اهتم بها اكثر منك . ما يدريك ؟ اذا لحق بها اذًى فاعلم انه سيلحق بي اضعافه .

الياس والله فصل ! هل تظن انك تحبها اكثر مني ؟

داود نعم — احبها اكثر من نفسي يا الياس .

الياس ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ هل انا في حلم؟ وهل ذلك صحيح يا زينة ؟

زينة	صحيح يا الياس .

الياس	هل اتفقتما ان تلعبا دوراً على ظهري ؟ والله اذا صحّ ذلكَ فقد تمَّ ما كنت اشتهيه من زمان .
داود « آخذاً بيده » انا لا اعرف في العالم فتاة تليق ان تكون رفيقة لك كزينة . وانتِ يا زينة «آخذاً بيدها » انا لم ارَ بعد رجلاً جديراً بقلبك السليم وروحك الطاهرة كهذا الرجل. فليبارككما الله.

داود	« باسماً » قد باركتنا السماء من قبلك . واذا كان بينك وبين الله صداقة جديدة فاطلب اليه ان يفتح عينيْ والدتك لتبارك رباطنا وترتد عن ابن العركوش .

الياس	امّي – امي لا يفتح عينيها سوى القبر . واذا كنت تنتظر رضاها فالأحسن ان تبدأ حياتك من جديد . « يسمع طرق على الباب . يذهب الياس ويفتحه فيدخل خليل وام الياس »

المشهد السابع

داود – زينة – شهيدة – الياس – ام الياس – خليل

ام الياس	« متجهة نحو زينة » آه يا مغضوبة، يا عاهرة ، يا ناقصة، يا اللّي بلا شرف ولا دين ! انتِ هون وانا غلّيت

المراسيل وانا دوّرْ عليك ، آ ؟ ايش شغلتِك هون
يا ملعونة يا مقصوفة العمر ؟ ايش لكِ شغل هون ؟
تفه عليكِ ولعنة الله وغضبه . بدّك تجرّسيني بين
الناس ؟ بدّك تنزعي اسمي واسم بيت سماحه —
والله لانزع لحمك عن عضمك يا خاينة ، يا اللي بلا
شرف وبلا ناموس ، شو طلعتك من البيت وحدك
بليلة متل ها الليلة ؟ شو شغلك في بيوت الناس ؟
بعدك زغيره تا تقاومي امك وتكسري كلمتها .
لكسّر العصا عا ضلاعك يا منحوسه . ان خلّيتك
هيك الله لا يخلّيني . ان خليتك هيك ما بكون
من ضهر امي وبيّي ولا بكون بنت العرموني .
صرتِ عن تطلعي بفنون فنون ، آ ؟ صرتِ عن
تمشي عا مدى راسك . الله لا يعيّشك تمشي . الله
يلعنك بكل كتاب مقري ولو كانت اللعنة على الحجر
ما بتجوز . انصرفي عا البيت قوام — هلق — بها
الدقيقة . انهزّي . تحرّكي — لا يعيّشك تتحركي
ان شاء الله . « زينة تبقى مكانها . ام الياس تقترب
منها بغضب وتأخذها من شعرها » قلت لكِ انصرفي
« تحاول ان تجرّها »

داود	« رافعاً يد ام الياس عن زينة ودافعاً اياها بلطف الى الوراء » ام الياس . ام اليـاس . لا تنسي ان زينة في بيتي الآن . وانكِ اذا كررتِ بعد لعناتك عليها اضطر ان اسألك ان تخرجي من هنا .

ام الياس	وحضرتك مينك ؟ أيْشك من الناس ؟ شو دخّل ذنبتك بيني وبين بنتي ؟ انا حرّه ببنتي . انت شو بيعنيك منها ؟

داود	يعنيني منها اكثر ما بيعنيكِ .

ام الياس	انت ؟ انت ؟ انت بيعنيك منها اكثر ما بيعنيني؟ إنت – شقفة قلعوط ما حدا بيعرف جـلدة راس بيّك منين . شقفة بسترند ؟ زينة ! سمعتِ لحدّ وين وصّلتني امورك يا رديّه ؟ ريتك توصالي عـا جهنم تأتنيّح منك بفرد مرّه « تهجم نحوها لتضربها. داود يأخذها بلطف نحو الباب »

داود	قلت لكِ إني اضطرّ ان اخرجك من هنا . فاعملي معروفاً واتركي بيتي .

ام الياس	يقلع لك ولبيتك . انا متشردقة فيـك وببيتك . بدّي بنتي . شيل ايدك عني بها الدقيقة يمّا بيني وبينك المحكمة « خليل يهجم على داود قاصداً ضربه »

الياس « منقضّاً على خليل » خليل ! خليل ! قف مكانك.
« يدفع خليلًا الى الوراء »

زينة « تصرخ مذعورة » داود.. امي.. خليل.. الياس.
«تهبط على الكرسي وتضع رأسها على الطاولة وتبكي»

ام الياس زينة ... زينة ... لحدّ وين بعد بدّك توصّليني ؟
« تقع على الأرض مغشياً عليها . شهيدة والياس وداود وخليل وزينة – كلهم يسرعون لمعونتها . داود يأتي بماء ويرش على وجهها فتفيق بعد قليل »

داود « بلطف » اعذريني يا امّ الياس .

ام الياس « بصوت ضعيف غضوب » ابعد عني ! ابعد عني ! انت اصل السبب . انت كل البلا منك . بنتي كانت متل الخاتم بالخنصر قبل ما جيت انت عابيتنا – ريتها ما كانت هاك الساعه. « الى زينة » وهلّق بتمشي عا البيت يمّا لا ؟

داود « الى زينة » اتريدين ان تذهبي يا زينة ؟ «زينة تنهض ساكتة وتتجه نحو الباب. امّ الياس وخليل يتبعانها».

الياس لا تخف يا داود .

داود اذكر وعدك يا الياس . كل اتكالي عليك .

الستار

الفصل الثالث

« غرفة في بيت موسى بك العركوش . فيها كراس قديمة بعضها من القش الممزق . الى الحائط الايسر ديوان قديم عليه وسائد قذرة . في الزاوية الى الشمال من الديوان مسامير في الحائط لتعليق الثياب ، عليها ملابس وعصي . امام الديوان طاولة صغيرة مستديرة مغطاة بالرخام الملطخ بالحبر وغير ذلك، عليها قنديل بترول ، وعلى الارض سجادة قديمة فيها خروق، تغطي قسماً من ارض الغرفة . في وسط الحائط الايمن باب . وعند اسفل حائط الصدر فراشان مطويان بدون ترتيب . وعند طرف الغرفة الامامي كانون فيه نار تكاد تنطفىء ، حوله « طراحات » قديمة مختلفة الالوان فوقها وسائد قديمة غلفها ممزقة في بعض الاماكن. الفصل شتاء »

المشهد الاول

ناصيف

ناصيف «يتخطر ذهاباً واياباً ويردد مشيراً بيديه تارة الى اليمين واخرى الى اليسار»

علقتْ بجمرة وجهك الوهّاجِ
كلُّ القلوب فاين اين علاجي؟

غيري يداجي او يحابي انما
قلبي ، ورأسِ ابيك ، ليس يداجي

«يصفّق اعجاباً ويعيد البيت بصوت اعلى من السابق»

مِن شقّ ثغركِ استقي وعلامَ لا ؟
وبنورِ عينكِ يستضيء سراجي

«يصفّق . يدخل موسى بك وفي يده نارجيلة وعلى رأسه «عرقية» بيضاء . يجلس بقرب الكانون متكئاً على منضدة ثم يأخذ جمراً من النار لنارجيلته»

المشهد الثاني

ناصيف بك – موسى بك

موسى ما لك ؟ هل فقدت آخر درهم من عقلك ؟ لماذا هذا التصفيق ؟

ناصيف آ ! ما لي وما لك. انت لا تفهم شيئاً في هذه الامور. هل سمعت في حياتك مطلع قصيدة أبدع من هذا المطلع « يتلو عليه الابيات » قل لي هل سمعت في حياتك ابدع من هذا البيت ؟ :

من شق ثغركِ استقي وعلامَ لا ؟
وبنور عينكِ يستضيء سراجي

موسى انت وشعركَ ستقودانني الى المقبرة قبل الاوان. هل هذا وقت نظم قصائد ؟

ناصيف وقت نظم قصائد ؟ والله فصل ! وما نفع الكلام معك اذا كنت لا تفهم من هذه الامور شيئاً ؟ انت لا تعرف سوى كتابة الصكوكَ وتسجيلها . وتريدني ان اكون مثلك . ولا تدري ان هذا العصر هو عصر النور ، عصر الشعر، عصر التمدن .

قد اخبرتك اني مدعو غداً الى حفلة تنصيب القائمقام. فهل تريدني ان اذهب الى هناك واجلس صامتاً مكتوف اليدين ، والناس حواليّ يتلون القصيدة بعد القصيدة والخطاب إثر الخطاب ؟ اهكذا تشاؤني ان اكون ؟ عندك ابن شهرته طبقت الآفاق وانت لا تعرف له قيمة ولا تقدّر مقامه في الهيئة الاجتماعية. انتَ ولدتَ لِعصر وانا لعصر — فكيف تأمل ان اكون مثلك ؟

موسى ملأت اذنيّ ومزّقت قلبي بمثل هذا الكلام الفارغ. انا اسعى جهدي لأجعلك انساناً بين الناس وانت تعمل بكل مقدرتك لتسوّد اسمي في العالم وتقصّر ايامي في هذه الدنيا — وقد قصفت نصف عمري. دبّرت لك عروساً — احسن عروس في المدينة كلها . عندها مال . عندها ارزاق . بنت اكابر ، جميلة ، عاقلة . وانت ماذا فعلت ؟ كنت تملأ رأسك عرقاً وتذهب اليها تكلّمها بدعارة وجهل . تلعب بالقمار مع اخيها، وأخوها يخبرها بكل شيء؛ فكانت النتيجة ان ردّت لك خاتم الخطبة وتعلقت بسواك . وانت لا تخجل بعد ذلك ان تظهر بين

الناس وتصنّف القصائد ! « بحرقة » ابن موسى بيك العركوش رفضته عروسه . يا للعار ! وابن موسى العركوش ماذا يعمل ؟ ينظم أشعاراً . يا عارك يا شيبتي !

ناصيف قل ذلك لغيري – فربما صدّقك . أتريد ان تؤكد لي انه قد صعب عليك كسر شرفك في ترجيع الخاتم ؟ صعب عليك ان تخسر مال ابنة سماحه وأرزاقها . هذا هو الصحيح .

موسى أتظن اني أريد مالها لذاتي ؟ إنّ أيامي معدودة . أمّا انت فأمامك حياة طويلة بعد . فبماذا تعيش ؟ اذا فلتت صيدة كهذه من يدك فمن أين تأتي بالمال لتأكل وتشرب وتكتسي ؟ من أين تفي ما عليك من الدين ؟ الكرم بعناه . والتوت بعناه . والحقل بعناه . والفرس بعناها . وهذا البيت مرهون وستستحق الرهنية قريباً . فمن أين تأتي بالدراهم لتعيش بعد موتي ؟ أتقتات بالروح القدس ؟ أم تخيط لك ثياباً من قصائدك ؟ اجبني . ماذا تفعل ؟

ناصيف لو لم تبذّر أموال أمي وأرزاقها لما كنتُ في حاجة الى الاهتمام بماذا آكل وبماذا ألبس .

موسى ارزاق امك – ومَن بذّرها ؟ مَن بذّرها على السكر والقمار والنساء غير جنابك ؟

ناصيف اي والله صح قول المثل : قامت القدرة تعيّر المرغفة بشحارها . «بجدة» أتعيّرني بالقمار وانت شيخ القمرجية ؟ وبالسكر وقد شربت في حياتك بحراً من النبيذ والعرق ؟ وتعيّرني ان لا حرفة في يدي – وما هي حرفتك ؟ قل لي بحقك ماذا عملت في هذه الخمس والسبعين سنة التي عشتها على الارض ؟ أمضيت عمرك كاتب ضبطٍ في محكمة القضاء . وأنت مع ذلك تهزأ بحرفتي – وحرفتي أشرف ما احترف رجل في العالم . ستموت وتدفن ويخمد ذكرك الى الأبد . أمّا انا فسأحيا الى الابد في كل بيت من أبيات شعري .

موسى يا خيبة آمالي ! يا ضياع اتعابي ! ربّيتك يا ناصيف حتى هذه السن لتشتمني ؟ إنّ الله لعن حاماً لأنه رأى عورة أبيه . وسيلعنك الله لأنك تسخر بشيخوخة أبيك . لو كنتَ رجلًا ذا مركز في العالم ، ذا نفوذ ، ذا كلمة ، ذا اعتبار ، لو انك كسبت فلساً واحداً في حياتك بكدّ يمينك لما

صعب عليّ هزؤك . لكنك عشت وانت انشف من شوكة . لا رائحة فتُشَم ولا ثمر فتؤكل .

ناصيف ايها الطبيب طبّب نفسك .

موسى تْفُهْ عليك وعلى الساعة التي وُلِدت فيها . لقد كانت ساعة نحس. ويلك ! لمن تظنني تعبت واجتهدت لأحصل لك على ابنة بطرس سماحه ؟ لذاتي ؟ لقد عشت حياتي – سواء أعشت ملاكاً أم شيطاناً . أمّا انت فعلى من اتركك بعد موتي ؟ أتظنني لا اعلم ان «عليك الدين جرب كلبين» ؟ فبماذا توفي ديونك ؟ ابن البَكر له عندك ١٠٠ ليرة «بتمهّل» مائة ليرة – وقد استحق دينه . أتريد ان يضعك في السجن ؟

ناصيف في السجن ؟

موسى نعم في السجن . في السجن . هذا ما سيحلّ بك اذا لم تتدارك الأمر وتترك قصائدك جانباً وتفعل بما اقوله لك . لا خلاص لك إلاّ في ابنة سماحه. اذكر كلامي هذا وضعه نصب عينيك. أليس حراماً ان يحظى بأموالها وأرزاقها نوري فقير مثل داود سلامه ؟ ألا تخجل ان تعترف أمامي ان صعلوكاً

مثله تمكّن ان يمتلك قلب عروسك ويميله عنك وهو نغل وليس مَن يعرف اصله من فصله ، وانت شاب من خيرة الشبان ومن بيت عريق بالحسب والنسب ؟ انت ابن العركوش . انت بك وابن بك . وهو . من هو ؟

ناصيف   وماذا تريدني ان اعمل ؟ هل أستطيع ان احملها على حبي بالقوة ؟

موسى   بل اشكر ربك يا مجنون لأنها لا تحبك ولأن امها تحبك . امها تحبك وهذا يكفي .

ناصيف   وماذا ينفعني حبّ امها ؟

موسى   اسمع . اسمع ! أنا أبوك وشَعري قد شاب . واين شاب هذا الشعر ؟ لعلك تعرف مستفعلنْ فاعلنْ أحسن مني . لكنك في امور الحياة لا تزال طفلاً . انتم – أبناء هذا الجيل – تتعلمون في المدرسة « ضرب زيد عَمراً » فتظنون انكم اصبحتم فلاسفة وان آباءكم كالجرّة المحششة ، لا يصلحون سوى للكسر .

ناصيف   « يضحك » اعجبني تشبيهك .

موسى   اسمع . اسمع لأبيك ولو كنت تعدّ نفسك افهم منه . قلت لك اضحك في قلبك لأن ام الياس

تحبك وتشدّ أزرك . وام الياس امرأة جبّارة لا تخضع لارادة احدٍ سوى ارادتها . اذا قالت كلمتها لا ترجع عنها . انها لا تزال تجهل أحوالنا المالية . وذلك من حسن حظك . ولو عرفت انك مديون لهذا وذاك، وان بيتنا مرهون فلربما غيرت افكارها من نحوك. لكنها لا تعرف . فاضحك في قلبك . لقد اظهرت لها اني متأثر جداً من فعل ابنتها في ارجاع خاتم الخطبة لك . وقد تطرفت معها حتى اني قلت لها انك ربما لم تعد ترضى بزينة حتى ولو عادت وقبلت منك الخاتم. فالآن اذا رأيتها تَتَمَرَّدْ قليلاً ، وذلك سيزيدها تعلقاً بك . هل تفهم ما أعني ؟

ناصيف اظنني افهم .

موسى عندك مساعد آخر — خليل . هذا عفريت كبير . اجعله يدك اليمنى . حينئذٍ دع زينة تعشق من شاءت — داود سلامه او داود قرد ، فهي لا تقدر ان تخلص من بين ايدي امها واخيها خليل . امّا اخوها الثاني — الياس — فهذا «آلاف لا شِيْنْ عليها» . هذا لا يهمه لو خربت الدنيا كلها او

عمرت ، ولو أَخذ اخته القرد الأسود .

ناصيف — انت مخطىء .

موسى — اسمع لي . اسمع لي حتى انهي ما عندي . وهذا داود سلامه – او داود حرامي – اذا بقيت زينة متعلقة به فهناك طريقة للتخلص منه .

ناصيف — قد جرّبنا تلك الطريقة ولم تنفع . ضربناه وظننا انّا تركناه على الثلج ميتاً. لكنه برىء من جراحه فهو أصحّ مما كان .

موسى — طريقتكم لا تنفع لأن فيها خطراً . والخطر أن تقف الحكومة على الامر فتكون النتيجة خلاف ما تشتهي . لكن اسمع لأخبرك عن طريقتي الآن : يقولون إن عنده اختاً . أليس كذلك ؟

ناصيف — عنده اخت . وماذا تنفعنا اخته ؟

موسى — اصبر ولا تكن لجوجاً . واختــه تسكن معه. أليس كذلك ؟

ناصيف — تسكن معه عندما تجيء في عطلة المدرسة .

موسى — هذا لا يهمّ . والمهمّ انها تسكن معه الآن في غرفة واحدة. أفهمت ما ارمي اليه ؟

ناصيف — ما فهمت ولا أُريد أَن أفهم .

موسى ومن أين لك الفهم وأنت مشغول بفاعلن ومستفعلن؟

ناصيف وسأبقى مشغولاً بها حتى نهاية عمري .

موسى اذن فاستعدّ للسجن او للموت جوعاً .

ناصيف «كمن يدرك فجأة امراً فاته من قبـل» فهمت . فهمت .

موسى الحمد لله . «يُطرق الباب» انظر مَن الطارق .

«ناصيف يفتح البـاب فتدخل ام الياس . موسى يهش لاستقبالها»

المشهد الثالث

ناصيف – موسى – ام الياس

موسى أهلًا وسهلًا بمراة خي ام الياس . كيف سرقتك الدرب صوبنا اليوم ؟

ام الياس «واضعة يدها على كتفـه» تفضل استريح . تفضل استريح يا موسى بيك . يا عيب الشوم .

موسى الله لا يعيبك . كرمال قيمتك . تفضلي . تفضلي استريحي . هلّق كنـا بسيرتك «ام الياس تجلس حول الحارون» عن قول لناصيف – مسكينة ام

الياس . كيف كانوا كل الناس حاسدينها عاولادها وكيف عادوا ولادها نزعوا اسمهم واسم بيّهم . عن قول له ام اليـاس ما بتستاهل إلاّ كل مليح عا كبر عقلها ، وطيبة قلبهـا ، وقداستها . وليش الله عن يجازيها هيك ؟

ام الياس «بحرقة» يتمجد اسمك يا ربي. ايش طالع بايدي. عملت كل جهدي تا ربيتهم أوادم. «متنهدة» بعد بيصير للدني حال .

موسى أو — الحق معك . بعد بيصير للدني حال . الياس قولي ايش بدّك فيه . خلّيه وحده . الياس عقلاته عَقَدّهن .

ام الياس «بحسرة» الياس قطعت كل الأمل منه . كنت قول طالع لبيّه . كنت قول بدو يطلع رجال . لكن يا ضيعان التعب . يا ضيعان العلم . شايفتلك كترة العلم عملته هيك . بيطلع لي بفنون فنون — ساعه هالدني مش سايعته . ساعه ما في لا الله ولا شيطان ولا جنّة ولا جهنم. ساعه كل العالم خوتان. ساعه بيقول انه بدو يشنق حاله يمّا يقوّص حاله . ساعه بيقول انه بدّو يروح يفلح ويزرع. انا بعرف !

فنون فنون. شيّب لي راسي يا موسى بيك. مبارح
طالعلي بفن جديد. جاي بيقلّي : يا امي بدي اتجوّز.
قلت نشكرك يا ربي ونحمدك. الصبي ركّز عقله.
يا ابني مين بدّك تاخذ؟ قال : شهيدة سلامه ، اخت
المعلم داود سلامه . وايش دينها يا ابني ؟ بسترند .
كيفك ؟ ابن بطرس سماحـــه يروح ياخذ شقفة
معلمه ، وبسترند ولـكلّ ؟ لا . لا . لا . قلبي
ما عاد فيه يحتمل يا موسى بيك. قلبي دمدم وراسي
داخ . لمّن قال لي هيك ، هاك الساعه ما عدت
قشعت — يقلع لك وللبسترنـد ولكل من صلـّب
بصليبهم. بدّك تاخذ بسترند روح انقلع من بيتي .
روح عمول بسترند. عمول نوري. عمول فرمسوني.
لكن لا بقى تخليني شوف وجهك . ضيعان الخبز
اللي فتيته عليـك . ضيعان المصاري اللي بعزقتها
عا علمك . روح من وجهي . روح من وجهي .
روح من وجهي ! ما عدت قشعت ولا عدت اعرف
ايش عن قول. حمل حاله وفات عا اوضته وسكّر
الباب . ايش بدّك حظ بعد انحس من ها الحظ
يا موسى بيك ؟ شو عملت بربنا تخمين يا هل ترى

تهو عن يباديني هالمبادا ؟ ابن بطرس سماحه ياخذ بسترنديه ؟!

موسى قولي الياس عقلاتو كانوا على جنب من زمان . لكن زينة . زينة شو اخذها وجاب غيرها ؟ ما بتحبّيش تعملي لِكْ شحطه ؟ « يقدم لها النربيج »

ام الياس يا عيب الشوم ، خلّي بايدك .

موسى « بالحاح » تفضلي . تفضلي .

ام الياس « تأخذ النربيج وتبدأ بالتدخين » هادا ، هادا هو اللي حارق لي قلبي يا موسى بيك . لو بعرف بس ها اللعين ها الابن الستين برطوشه كيف دخل بعقلها وقَلَبها خلفاني قدماني . تري منين الله بلانا فيه ؟ بعلمك كانت متل الخاتم بالخنصر . بعلمك كانت – امي . امي . ايش ما قالت امها – على راسها . بعلمك كانت متل غنمة القرعة ما تردّش بوجهي كلمه ، اليوم صارت بتردللي الكلمه كلمتين . بدّك اكتر ما جبت العصا ونزلت فيها خبيط ؟ بزماني ما مديت ايدي ليها . لكن راسها والف عصا . الداي داي والطبيب الله .

موسى بعد بتعقل . البنت بعدها جاهله .

ام الياس جاهله ؟ لا يعيّشها تجهل ان شاء الله . صار عمرها عشرين سنة وبعدها جاهله ؟ مبارح بتقول لي : « يا باخد داود يمّا بروح عالدير . واذا ما خليتينيش روح عالدير بسمّم لحالي » . كيفك ؟ بتقول لي : انتِ بدكِ تهلكيني . انتِ بدكِ تجوزيني غصباً عني . سامع ؟ قال انا بدي اهلكها . ريتها هالكه ! قال بدّي جوّزها غصباً عنها . والبنت لحدّ وين بدها تضلّ ناطرة تخمين ؟ شو قدام البنت غير الجازه ؟ البنت بس تقطع التمانتعش وتضلّ بالبيت بيصيروا لسانات الناس بيظهرها هَهْ « تضع شبراً فوق شبر أمام فمها » بلا قافيه . البنت شو لها غير السترة؟ هلق ما عدت في هدّي الناس عني . حكّت العالم علينا . ريتها حكايه . بتصدّق ما عاد ليش عين اظهر بين الناس ، وخاجلي نفسي منك ومن ناصيف بيك بالاخص. بيحق لكم تزعلوا عليّ . بيحق لكم تعتبوا .

موسى انا بتعرفي يا ام الياس — كنت متل الاخوه أنا والمرحوم بطرس بيك يمّا لا ؟

ام الياس وأعزّ من الاخوه .

موسى كنت احلف بحياته يمّا لا ؟

ام الياس وهو كان يحلف بحياتك .

موسى ورحمته في تربته يا ام الياس معزّتك عندي ومعزّته سوا . ولكن – بحكي لك الصحيح – لمّن اجا ناصيف وخبّرني عن الدق اللي لعبته زينة معه – انضربت . انضربت عا وجهي . صعبت معي – ليش الحكي . زينة اللي كنت عدّها متل بنت خي – تردّ خاتم الخطبة لابني ! أهيدي صارت بعد؟ بعمرك وزمانك سمعتِ ان بنت عاقله ، بتفهم ، بتحدّ الاشيا بترفض عريس متل ناصيف ؟ انا من قلّة البنات رحت خطبت زينة لابني؟ انتِ بتعرفي وكل الناس بيعرفوا ان بنت القائمقام بتقتل حالها عا ابني. لكن انا حدّيتها بعقلي–خيّي بطرس مات وخلّف ها البنت . صار عمرها عشرين سنة والبنت ، عا رايتك ، بدّها مين يسترها . حدّيتها بعقلي لقيت انه احسن من ناصيف مش رايح بيصير لها. تطلعنا فتّشنا انها بالآخر تكبّرت علينا وراحت تعلقت بهونك نوري الله بيعرف جلدة راس بيّه منين . انا بحكي لك الصحيح –صعبت معي. لكن

عدت لُكْتها بفكري : انا رجال ختيار – بعيش لي بعد سنتين وان كتّرت خمسة . ما عنديش غير ها الصبي . بدي جوزه قبل ما موت . قلت اذا كان هو بيحب انه ينسى ها المسألة انا والكل بنساها . تاري لك ناصيف صعباني عنده أكثر مني .

ام الياس « الى ناصيف » يا عيب الشوم يا ناصيف بيك . انت بتقيّد عا بنت ؟ ايش هي وايش عقلاتها ؟

موسى متل ما قلت لك يا ام الياس . انا واياكِ – ايامنا ولّت – نحنا لا بقينا نتجوز ولا بقينا نطلّق . بنّا صالح ولادنا بس . وكيف ما كان . نحن منعرف صالحهم أحسن منهم. أنا بتكفّل بناصيف . ناصيف ولو كان رجال – بعده بيقبل من بيُّه وبيسمع منه . ها الجيل الجديد يا ام الياس الله يسترنا منه . عشنا وعاش جدودنا قبلنا . ما كنا نسمع ببنت تكسر كلمة امّها يمّا بيّها . اليوم بيطلعوا لنا بخبار خبار : ساعه الجواز بلا عشق ما بيسواش . ساعه بدهم يتجوزوا بلا خوري . ساعه بدهم يطلقوا اي وقت كان . إلاّ اخلصي – مليح اللي الله بعده رافع السما عنا .

ام الياس　نشكرك يا ربي ونحمدك . «سكوت»

موسى　وهلّق شو رايك ؟

ام الياس　الراي عندك .

موسى　رايي — من بعد أمرك — انك لا تخلّي زينة بقا تشوف هاالملعون . هادا شيطان ملفلف . لا له ذمّه ولا له دين . يمكن يكون ساحر — الله اعلم . ثم بعده . رايي إنّا نعجّل بالعرس قدّ ما فينا . وانا عليّ بالخوري .

ام الياس　الخوري ما فيش عاقه منه . الخوري حنا لو قلت له الابيض اسود بيقول اسود . ولو قلتله زتّ حالك بالنار بيزتّ حاله .

موسى　وحتى نسكّر تمام الناس بشوف موافق انك تروحي تجيبي زينة لهون حتى نصالحهم هي وناصيف وبيرجع كل شي عا بيت صحابه .

ام الياس　«ناهضة» قولك عاالراس والعين يا موسى بيك . وانت يا ناصيف بيك لا تزعلش . ما بيصير إلاّ عاخاطرك . «تخرج»

المشهد الرابع

موسى – ناصيف

موسى ارأيت كيف تدبّر الامور ؟ تعلـّم. تعلـّم. نظـم الاشعار فنّ والسياسة مع الناس فن آخر. والآن، اذا لم تعاكسني الاحوال، سأملأ جيبك مالاً وارفع مقامك بين الناس. لا يعيش اليوم الا الغني يا ابني. المال كل شيء . ضع هذا نصب عينيك دائماً . المال هـو القوة والشهرة والاعتبار والكل في الكل. شعر ما شعر – حطّ بالخرج يا ابني . الناس مع الواقف . « يُفتح الباب ويدخل خليل »

المشهد الخامس

موسى – ناصيف – خليل

خليل مرحباً .

ناصيف « ناهضاً لمصافحته » ادخل . ادخل . منين الله بعت لي اياك هلق ؟ « موسى بك يأخذ نارجيلته ويخرج »

خليل من الجنة .

ناصيف	اجلس .

خليل	« يبقى واقفاً » اجلس ؟ هلّق وقت جلوس ؟ كم مرسال بمرسال بدك نبعت وراك ؟ فزّ ! حنا سركيس ومخايل عون ناطرينّا برّا . اليوم الخميس يومك السعد . والله بتشلّح ابن عون اليوم قميصه اللي عا جلده . بزمانك خسرت شي نحاسه يوم الخميس؟ لا ؟ فإذن قوم . شوباك ؟

ناصيف	ما باليش بالقمار هلق يا خليل . خليني بحالي .

خليل	وبايش بالك ؟ بالنسوان ؟ قوم ! عيب عليك والله . بعدها آخده عا خاطرك دعوة الخاتم ؟ يا عيب الشوم . كلمة من شقفة مَرَه بتنيّمك بالفرشه سنة ؟ قوم « يأخذ بيده » مْنلعب لنا دقّ دقين . بتطير زاعولتك . ان كان زعلك عاشان زينة انا بتكفلك بزينة . زينة لك وحياة راسك . انت تعا معي وأنا بفرّج همك .

ناصيف	قلت لك خليني بحالي يا خليل . ما بقدرش روح هلق . لكن بدّي اقصدك بشغله .

خليل	ما تكرم عينتينك . لكن عجّل . الكدعان ناطريني برّا .

ناصيف بـدّي ياك تقول لزينة انـه هادا هالنغل – داود سلامه – مجوّز . وانه هاالبنت اللي عنـده اللي بيقول انها اختـه – هي مَرته – عايش هو واياها بالحرام . وانـــه ممروض . بتعـرف ، مرض خبيث ؛ فهمت ؟

خليل ما تكرم عينتينك ! بقول لهـا انه مجوز ، وانـه مطلّق . وانه عنـده عجّال ولاد . وانه مسلول وصايبه زنتاري وهوا أصفر ، وانها امه كانت عورا وبيّه اخوت بالمارستان ، وجـدّه كان ابرص . ولَـك انت القي هالحمله عاخليل وغني يا موليّـا . ما تكرم شواربك « يهمّ بالخروج ثم يرجع » لكن وينك – ولو طلعت تقله – بدي منك شي ليرتين تلاته. مبارح كان عليَّ نحس. شلّحوني عالمنضوف. لكن اليوم يومي. والله لآخذ لك كل نحاسه معهم. بدّي ليرتين تلاته بس . ما استرجتش اطلبهن من امي. بحياتك عجّل ! وطمن بالك من يم زينة .

ناصيف «يخرج محفظته» كل شي معي تلات ليرات. كيف بدّي اعطيك هن ؟

خليل ليرتين بيكفّوا . ليرتين . عجّل بحياة شواربك !

« ناصيف يعطيه الليرتين » الليلة برجّعلك هن مع الفايض ، فايض الميه ميتين . مليح ؟ خاطرك هلّق ، متل ما قلت لك ، طمّن بالك من يمّ زينة . ما دامني انا بالوجود زينة ما بياخدها حدا غيرك . خاطرك . « يخرج . بعد سكوت قصير يدخل موسى بك وفي يده نارجيلته » .

المشهد السادس

ناصيف — موسى

موسى خير ان شاء الله ؟

ناصيف وعدني ان يعمل كما اشرت .

موسى « يجلس كما كان جالساً قبلاً » بعدك بتقول بيّك خرفان ! « يسعل بشدّة » هالسعله بدّها تقصف لي عمري بكّير . لكن اذا مت هلّق بموت مرتاح البال . « سكوت . تدخل ام الياس جاذبة زينة بيدها »

المشهد السابع

ناصيف – موسى – ام الياس – زينة

ام الياس   فوتي . فوتي . ما حدا راح ياكلك ولا حدا راح يشنقك . صبّحي عمك بو ناصيف . موسى بيك بيحسبك متل بنته .

موسى   « الى زينة » أهلًا وسهلًا بزهر البان! « يقف اجلالاً » شايفه اللحمه عالضفر ، أنا وبيك بالزمان كنا متل اللحمـه عالضفر . تفضلي . تفضلي . ناصيف زعـل شوي . وانا زعلت شوي. لكن هلق كل شي راح عا بيت صحابه . تفضلي . تفضلي . « يأتيها بكرسي ويجلسها . زينـة تجلس » مراة خيي ام الياس ! ام الياس ! عاوزك بكلمه عمـلي معروف « يغمزها ثم يأخذ بيدها ويخرج الاثنان . ناصيف بـك يبقى واقفاً وزينة جالسة . ناصيف بك يأتي بكرسي ويجلس بالقرب من زينة . زينة تنظر الى الارض وتلعب بطرف فسطانها . وناصيف بـك يلعب بسلسلة ساعته »

المشهد الثامن

ناصيف – زينة

ناصيف «بعد سكوت مملّ» قح. قح. «متنحنحاً يخرج خاتم الخطبة من جيبه ويتقدم نحو زينة ليأخذ بيدها ويضع الخاتم في اصبعها» اظنك قد أفقت من سكرتك الآن.

زينة «ساحبة يدها بلطف» لا أعلم اني سكرت في حياتي حتى افيق.

ناصيف «ماداً يده نحوها» اعطيني يدك.

زينة وماذا تطلب من يدي؟

ناصيف احب ان اصالحك وان تعودي عروسي كما كنت.

زينة الاحسن ان لا نتصالح اذن.

ناصيف اتريدين ان تبقي عدوّتي؟

زينة لا اريد ان اعادي احداً اذا امكنني. لكنك اذا كنت تطلب عداوتي فانت المسؤول لا انا.

ناصيف وهل تظنين اني اطلب عداوتك؟

زينة نعم.

ناصيف وكيف ذلك؟

زينة	لانك تعلم اني احب سواك ولا تزال ، مع ذلك ، تضطهدني وتضطهد من احبه .
ناصيف	ولماذا لا تحبينني ؟
زينة	لأني لا أحبك .
ناصيف	اذن لا تزالين متعلقة بهذا الـ ... هذا الصعلوك — داود سلامه ؟
زينة	قل لي لماذا جاؤوا بي الى هنا ؟ ألأسمع منك كلاماً كهذا الكلام ؟ اذا شئت ان تتابع حديثك فالافضل ان لا تذكره بلسانك بعد .
ناصيف	حسن . لن اذكر اسمه بعد . ماذا وجدت فيه من الحسنات وبماذا تفضلينه عليّ ؟ انا بيك وابن بيك وهو مجهول الحسب والنسب ، والارجح انه ابن فلاّح . انا شاعر صيتي طبّق الآفاق ، وهو معلم لا يكاد يعرف بوجوده احد . انا ... لا احتاج الى الشغل لاجل معاشي ، وهو فقير ليس عنده عشاء ليلة . واخيراً سحنته ليست اجمل من وجهي . فماذا يحببك به ؟
زينة	احبه لانه رجل . وبعد ذلك فماذا يعنيك اذا احببته او احببت سواه ؟ يكفيك اني لا احبك .

ناصيف	وما نفعك من حبه اذا كان لا سبيل للوصول اليه؟

زينة	مازلت انت في طريقي فربما تعذّر ذلك .

ناصيف	اذن سابقى في طريقك ما زال هو في طريقي .

زينة	اسمع يا ناصيف بيك. دعني احدثك حديثاً معقولاً الآن . لماذا تطلب الاقتران بي ؟

ناصيف	لأني احب ان اتزوج .

زينة	ولماذا لا تفتش عن سواي ؟

ناصيف	ولماذا افتش ما دمت قد وجدت واحدة ، والكل يقولون ان زواجنا مناسب . امك تقول كذا . وابي يقول كذا . والناس يقولون كذا . الا انت . فهل تظنين انك افهم من كل الناس ؟

زينة	ولماذا تطلب الزيجة ؟

ناصيف	ولماذا يتزوج الناس ؟

زينة	ناصيف بيك . عبثاً احدثك فأنت لا تفهمني . قلبي لا يميل اليك على الاطلاق . هل تفهم ذلك ؟ قلبي يميل الى سواك ويحب ان يكون مع من يميل اليه . هل هذا بسيط ؟ اذا قدر الله وتم اقتراننا — وانا لا اقدّر ذلك — فسيكون هذا الاقتران سبباً لهدم سعادة ثلاثة اشخاص — سعادتك وسعادتي وسعادة

من احبه . اذا تم اقتراننا فحياتك معي ستكون عذاباً دائماً . هل قرأت عن جهنم في الانجيل ؟ حياتك معي وحياتي معك ستكون اشد هولاً من جهنم . فدعني وشأني . ولنفترق صديقين لا عدوّين.

« تبكي »

ناصيف ابكي . ابكي . فخير لك ان تعرفي انك « ان كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً ». لقد تحملت منك كثيراً، وسمعت اكثر . وقد عزمت الآن ان لا اتحمل اكثر مما تحملت . ناصيف بيك عركوش في زمانه لم ينسحب من وجه صعلوك ، زنديق كإبن سلامه.

زينة « تثب عن كرسيها بغضب » قف ! قف ! لا تذكر اسمه بفمك . أيلذُّ لك مرأى دموعي آ ؟ فاعلم انك لن ترى بعد دمعة واحدة تسيل من عينيّ بسببك. « تمسح دموعها » ظننتك انساناً . ظننت ان فيك قلباً . والآن ادركت خطإي . « ناصيف يقترب منها وقد أدهشته سرعة غضبها » لا تمسني بيدك ! ابتعد عني . ابتعد عني !

المشهد التاسع

ناصيف – زينة – موسى – ام الياس

موسى «يدخل وام الياس وراءه» شو صار ؟

ام الياس شوبو صوتك طالع ؟

موسى «الى ام الياس» ما بتعرفيش كامراة خي العريس والعروس ؟ عن يتولدنوا تخمين .

ام الياس مش دعوة ولدني. هَيْ هالمغضوبه بدها تطيلعني عن ديني بعد. «الى زينة» ليش طالع صوتك يا مزنتره ؟ ريته يختفي ان شاء الله .

موسى «الى ام الياس» وينك. وينك كامراة خي ، متل ما قلت لك . دعوة رهدنه مش اكثر .

المشهد العاشر

ناصيف – زينة – موسى – ام الياس – الياس – داود

الياس «يدخل فجأة ووراءه داود. الحضور ينظرون اليهما منذهلين» اين زينة ؟ اين زينة ؟ امي ، ماذا فعلتِ بزينة ؟ «يراها واقفة وراء موسى بك» انتِ هنا ؟

انت هنا ؟ « ينطرح اليها ويعانقها » لماذا جاؤوا بك الى هنا ؟ هل كلّلوك بعد ؟

ام الياس «بخنق» ولك انت جنّيت بفرد مرّه تخمين ؟ ضب لسانك ورا اسنانك واعراف وينك ! مش شايفني أنا هون تخمين ؟

الياس امي ! امي ! لماذا جئتِ بزينة الى هنا ؟ انتِ تريدين ان تهلكيها . تريدين ان تعطيها لرجل لا تحبه . وهذا لن يتمّ ما دمت حيّاً . زينة عندها عريس واحد . عريس واحد فقط . هو الانسان الذي تحبّ ان ترافقه كل حياتها . وذلك الانسان هو « يذهب الى داود ويجذبه بيده الى وسط الغرفة » هو هذا الشاب . هذا عريسها الوحيد .

ام الياس « تنطرح نحو الياس رافعة يدها لتضربه . موسى بك يأخذ بيدها » ولك أنا قلت لك سكّر تمك .

موسى « بلهجة مصالح » مراة خي ام الياس . مراة خي ام الياس ! يا حيف عليكِ ! بتحطي عقلك بعقله ؟ الياس طبعاته حدّين شويه . اسمحي لي بكلمة اعملي معروف . كلمة لا غير . « الى الياس » يا الياس ! انت عن تدوّر عا صالح اختك — ولو ما كنت

بتعرف صالحها — مع هادا وكله — برافو عليك ! انت عا الراس والعين . لكن حضرة الشاب ايش شغلته هون ؟ ايش دخله بالنص ؟ أنا بعد ما تشرفتش بمعرفته .

الياس هذا الشاب يفتش عن صالح زينة مثلي واكثر مني.

موسى في عندكم شي خيّ يمّا ابن عم جديد أنا مش عارف فيه؟ ان كان حضرته ابن عمها — هادا حدّ علمي. واهلاً وسهلاً فيه .

الياس ليس ابن عمها ولا ابن خالتها. هو يحبها أكثر مني وهي تحبه اكثر مما تحبني. وهذه هي القرابة بينهما. قرابة قلوب لا قرابة دم .

موسى وشو عرّفك انها بتحبه ؟ سألتها شي ؟ « الى زينة » صحيح بتحبيه يا بنت خي ؟

زينة « تحمر خجلاً وبعد سكوت قصير » نعم .

موسى حلو « الى داود » وانت يا حضرة الافندي شو الاسم بالخير ؟

داود داود سلامه .

موسى والنعم — والسبع تنعام — وانت بتحب ها البنت يا حضرة الافندي ؟

داود نعم .

موسى حلو . مقبول . شو بتريد من ها البنت يا حبيبي ؟ بدك تاخدها ؟

داود اذا رضيت هي بي .

موسى « الى زينة » وانتِ بتحبي تاخديه يا بنتي ؟

زينة اذا رضي هو بي .

موسى كله عا الراس والعين . فاذن تنينكم راضين . يا مراة خي ام الياس — الله يتمم النصيب . انا وابني عاحياده .

ام الياس « مذعورة » انا !؟ انا تا ارضى لبنتي بها النصيب ؟ بنت بطرس سماحه تا تاخد بستوند . كافر . نوري . فرمسوني ...

موسى « الى ام الياس » دستور . دستور بكلمة بعد يا اختي ام الياس . « الى داود » بعد لي عندك ها المسألة : اذا أخدت ها البنت الحلال شو بدك تعمل بمرتك اللي عندك هلّق ؟ ناوي تطلّقها ؟

داود امرأتي ؟ ماذا تعني ؟

موسى أوْ . لا تاخدنيش وتجيبني. يعني ها المرا اللي عندك واللي بتقول انها أختك . انا بعرف، وانت بتعرف

وكل العالم بيعرف انها مرتك مش اختك . المثـل بيقول : ما فيش بزقه تحت لزقه بتختفي . هَي ها المرا ، ايش بدك تعمل فيها ؟ يمّا بدّك تاخد تنين ؟ هادا بشريعة النصارى ما بيجوز يا ابني .

داود «يتميز غيظاً. الباقون ينظرون ويسمعون منذهلين» وَيْحَكَ ! هذه اختي. اختي من ابي وامي . ربّي. هل انا بين ذئاب ! ويحكم – اما يكفيكم انـــكم تحاولون ان تهلكوا هذه الفتاة الطاهرة حتى تهلكوا معها فتاة اخرى طاهرة مثلها ؟

ام الياس بدّي أعرف انت شو دخلك بيني وبين بنتي ؟ شو بيخصّك من بنات الناس ؟ انت ...

موسى « يقاطعها » دستور شويه. دستور شويه يا مراة خيي. بعد بـدي اسأل الافندي ها المسألة « الى داود » يا ابني بنات الناس مش داشرين . ومتل ما انت بتفتش عا مصلحتك النـاس بيفتشوا عا مصالحهم . سلّمْنا معك ان ها المرا اللي قاعده معك اختك . تا نقول انها اختك . الله يستر عا البنات . لكـن ها المرض اللي معك شو بتعمل فيه يا ابني ؟ هادي جازي نصرانيه – لا فراق ولا طلاق. بدك تعدي

مرتك والكل ؟ هادا حرام عند الله وعند العبد . بنت متل هَي « يشير الى زينة » — وردة باول عمرها — تروح تعديها بمرض لا طبيب بيشفيه ولا الله بيشفيه ! هادا حرام يا ابني .

داود « يحرق اسنانه غيظاً » خسئت ! خسئت !..

موسى « يقاطعه » دستور شويه. روّق عن بالك. « الى ام الياس » بدّك اياه يا مراة خيي ام الياس ؟

ام الياس « تصرخ » لا . لا . لا . خلّيه يروح من هون. خليه يقفي من وجهي !

موسى « الى زينة » بدّك اياه يا زينة ؟ « زينة تبكي ساكتة »

داود هذا بيت لصوص. هذا بيت ذئاب. هذه مكيدة. ويحكم ! ويحكم !

موسى أوْ هُوْ ! عراف حدك . طوّلنا روحنا عليك بزياده . هلّق كاني ماني ما عاد في. اعمل معروف — اعطينا مدور زنارك « يأخذه من يده ويدفعه » ناصيف عندك واياه « ناصيف ينطرح الى داود ويدفعه الى الخارج بالقوّة . الياس يحاول الدفاع عن داود »

داود « مدافعاً عن نفسه بعنف » لصوص ! لصوص .

زينة ... « ناصيف يطرحه خارجاً ويقفل الباب »

زينة « تثب عن كرسيها وتنطرح نحو الباب » داود ! داود !.. « تقع على الارض ».

السِتار

الفصل الرابع

« الفصل ربيع. الساعة العاشرة صباحاً. حديقة فاكهة حول بيت سماحه . الى اليسار يرى جدار من جدران البيت فيه اربعة شبابيك. في الدور الثاني شرفة في الوسط. في وسط الحائط من الدور الارضي باب والى جانبه نافذتان. حول الحديقة سور عال من الحجر . في الزاوية اليمنى بوابة تؤدي الى الخارج. من باب البيت يمتد ممر ينتهي عند جدار الحديقة الغربي . وآخر يمتد من الشمال الى الجنوب قاطعاً الممر الاول في الوسط . على طول السور – عند اسفله – وعلى وجهتي الباب اشجار ياسمين مشتبكة الاغصان . في الحديقة اشجار من التفاح والخوخ والمشمش والسفرجل واللوز–بعضها قديم وبعضها فتي وكلها مغروس بغير ترتيب. اشجار التفاح والخوخ مزهرة . الى الجنوب الغربي من ملتقى الممرين شجرة تفاح قديمة مكسوة بالزهر تحتها مقعد خشبي . على المقعد ام الياس وموسى بك . في يد ام الياس مكوك وبكرة خيطان . في يد موسى بك عصا غليظة . حول رقبته طوق مكوي لكنه مكسر ومغطى بالوسخ من العرق والغبار ، وعقدة غليظة قديمة ممزقة . ثيابه افرنجية لكنها قديمة العهد لم تر الكاوي من زمان . على صدره سلسلة فضية غليظة . وعلى رأسه طربوش احمر اطرافه مكسرة وقذرة . »

المشهد الاول

موسى – ام الياس

موسى « منحنياً على عصاه » لكـن قلتِ لي زينة صارت تروح وتجي اي ؟ الحمد لله عا السلامه يا مراة خيي.

ام الياس « بتخشع » الله يشكر حمدك .

موسى صدقيني – من يوم اللي سخنت ها البنت وانا متل الملطوش على راسي: لا يهنالي اكل ولا يهنالي شرب. ان نمت ما افتكر الاّ فيها. وان قمت ما افتكر الاّ فيها .

ام الياس ما في شك بمحبتك يا موسى بيك .

موسى لكن لو بتشوفي ناصيف ! هاداك لا عاد ياكل ولا عاد يشرب . اسم زينة ما يطلع من تمه . كيف ما راح كيف مـا اجا : – زينة. زينة. زينة. قال : ان ماتت زينة – لا سمح الله – بدّي موت وراها. ليش الحكي – بيحبّها حبّ مش بوعي. حب فوق الوصف يا مراة خيي ام الياس .

ام الياس عـن تخبّرني انا ؟ ما بعرفش ناصيف ؟ بيحبهـا يا ولدي ، لكن ، سبحان الله ! ليش تا بيقولوا –

المحبة خصايص والغضب عموم . هي اذا ذكَرْت
لها اسم ناصيف بيطير صوابها . بتجنّ بفرد مرّه .
« بأهمية » ضميري ناقزني انه حدا كاتب لها هالبنت .
مِنْ قلّة المحسدين والمبغضين . بعدك فايق لمّن
جيت تْشقّ عليها وهي ساخنه انت وناصيف بيك؟
بعلمك ها البنت غايبه عن وجه الدني . ها الحمّى
عليها تقلي وتشوي! هَيْ ليلة الكانت مخطره كتير .
ليلة القال الحكيم انها هات تصافح هات ما تصافح .
لا عادت عرفتني ولا عرفت اخوتها ولا عرفت
حدا . لكن بسّ قرّب ليها ناصيف وقال لها :
بتعرفيني يا زينة ؟ فتحت عينيها وبَسّ لمحته وَلَعت
متل الحوته وصرخت صوت – الله المجير – انا
قلت راحت من إيدي البنت : « خذوه من هون ! »
حتى ما عادت شافت اثر ناصيف بالاوضه . ومن
بعدها – ولدي – ضلّت تترقوص بنومها وتعيّط :
« خذوه من هون ! »

موسى عا حجّة الحمّى الواحد بيقول ايش ما كان . ما
بتعرفيش المحموم كيف بتضيق منافسه وبيصير
يلاطش خياله ؟

ام الياس	ولدي قديش قضّت ! ولدي قديش ذاقت ! شايف قشة الشوفان – متـل قشة الشوفان صـارت . لو بعرف منين جابت السمّ ؟ الحكـيم قال انه السم سرح بجسمها . ربك ستر ما وصلش لقلبها . عشرين ليله وعشرين نهار ضلّت عا فرد حـال . لا طيّبه معروفه ولا ميّته معروفه . لولا ها البنت الحلال – الله يوجهلا الخـير – هَيْ شهيدة ، اخته للمعـلم داود ، لولاهـا كانت قشطت زينة ، يا ولدي ، من ايدي.

موسى	الطبيب الله سبحانه في ملكه . العبد ما بيطلع بايده شي .

ام الياس	اول ليله الوقعت فيها زينة إجت ها البنت الحلال – شهيدة – وقالت لي « خليني اخدمها » انا – بدك للصحيح – رجفت مصاريني منهـا . كنت بعدي مخمنتها ، متل ما قلت ، بنت عاطله . وانهـا مش اخته للمعلم داود . لكن زينة ما كانتش تخلي حدا غيرها يقرب صوبها . قلت : يا ويـلاه . ما دام زينة بدّها اياها خلّيها تقعد . ويا موسى بيك ! انا وقعت عيني عا بنات كتير ، لكن متل ها البنت لا شفت ولا بقى شوف – الله ما خلق متلها . قعدت

فوق راس زينة متل ها الملاك. ضلت عا يومين تلاته لا تاكل ولا تشرب. جنس النوم ما كانت تعرفه. ما فيش ساعه بالليل افتح عيني إلاّ شوفها قاعده عا هالكرسي متل الصلّوب. سلخت لي قلبي. بالآخر قلت لها: قومي نامي لك شوي يا بنتي أنا بقعد مطرحك. لا سمح الله انها تنام، قالت: أنا صبيه يا خالتي ام الياس. في اسهر. انتِ ختياره. ما ألبق ديّاتها وما أطرا لسانها! الحكيم انجلق فيها. مبارح بيقول لي: ان كانها بنتك خلّصت ما حدا خلّصها غير ها البنت الحلال. لازم تركعي قدامها وتغسّلي لها جرَيْها كل صباح ومسا وتشربي زومهن.

موسى لكن انتِ مصدّقه انها اختـه؟ «يحاول اخفاء امتعاضه»

ام الياس لا. لا. حرام يا موسى بيك حطّ بنت متل هَيْ بذمتي. بنت متل هَي بزمانها ما بتعرف النقص ولا بتمشي على دروب العطّال. لا. لا. لا. حرام. وبعد هادا وكلّه، هِيْ متل خيّها مَخْلق مَنْطق. مين ما شافهم بيقول مِن فَرْد أمّ وبيّ.

	لا . لا . بنت آدميه – بلا زغره – تايفضل عنها . فقيره بسّ .
موسى	وهلّق شو ناويه تعملي بزينة يا مراة خيي ؟
ام الياس	انا بعرف ؟ يعرفني طاعون ! بعد ها اللي ذقته وها اللي قضّيته يا موسى بيك ما عاد لي عزم يتحرك ولا لسان يحكي . انا نذرت نذر . انه اذا صحّت ها البنت خليها تعمل اللي بدها اياه . أنا لا عدت قول لها خدي فلان ولا خدي فليتان . بدها ناصيف تاخده . بدها ابن سلامه تاخده . بدها القرد الاسود تاخده . انا بدّي نزّل الحمله عن ظهري . بيقدّيني ها اللي صابني .
موسى	لا تواخديني يا مراة خيي اذا قلت لك ها الكلمه ، ولو طلعت تقيله – كل شي صابك من ايدك . من رخاوتك . أنا كنت عدّك اخت الرجال . لكن ايش بدي قول اذا كنت بشوفك بتمشي عا هوى بنتك وبتفزعي تكسري لها خاطرها ! هَي رخاوه يمّا لا ؟

«زينة وشهيدة تخرجان من البيت الى الحديقة متجهتين نحو الغرب وآخذتين الواحدة بيد الاخرى»

المشهد الثاني

ام الياس – موسى – زينة – شهيدة

زينة «وآثار المرض لا تزال بادية على وجهها ، تمشي الهويناء. وتنادي بصوت ضعيف» يا امي ! يا امي ! أين انت ؟

ام الياس «باسمة» أنا هون يا روح امك. هون تحت التفاحة.
«زينة وشهيدة تتجهان نحو التفاحة»

ام الياس «الى موسى بك» بتقول لي رخاوه . ايش بدي اعمل اكتر من هيك ؟ اكتر ما ضربتها وحبستها بالبيت وصوّمتها عاريق بطنها ؟ لو ماتت – لا سمح الله – ما كانوش الناس بيقولوا امها قتلتها ؟ وأنا دمدم قلبي من حكي الناس يا موسى بيـك . ما حاجتيش اللي صابني ؟ ما حاجتيش حكي الناس ؟ انا اللي عملته ما حدا عمله . واللي احتملته ايوب ما احتمله. هلق بتجي لهون. قنّعها تا تاخد ناصيف بيك . احكي لها شي كلمتين يقطعوا عقلها – بلكي بتسمع منك . «شهيدة وزينة تقتربان من التفاحة» أنا هون يا بنتي يا روحي . انا هون .

زينة «مقتربة مع شهيدة من امها وموسى بك» يا امي بدّي بشّرك بشاره ... «يقع نظرهـا على موسى بك فتقصف راجعة الى الوراء وجاذبة شهيدة بيدها»

ام الياس زينة ! زينة !

زينة «دون ان تلتفت الى الوراء» ماذا يعمل هـذا الرجل هنا ؟ ليذهب من هنا !

المشهد الثالث

ام الياس — موسى

ام الياس « الى موسى بك » شفت ؟ ايش طالع بايدي بعد؟ بقدر بنزل فيها بالعصا ؟

موسى لا تلوميهاش . لا تلوميهاش يا ام الياس . بعدها قايمه من السخونه جديد. لكن لومي حالك. شايف لك انتِ ناويه عاهلاكها ، مش هيك املي فيكِ يا ام الياس !

ام الياس يا تعتيري انا ! قل لي : ايش بعمل؟ ايش بسوّي ؟

موسى انت اخت الرجال وعن تسأليني أيش بتعملي ؟ مني ومنك انا اذا كنت بعرف انها بنتي عاشقه انسان

دون ، سقط ، الله بيعلم شو دينه وشو أصله، واذا كان مقدم لها عريس آدمي وابن اوادم ، ما كنتش بقعد بداديها على خاطرها ، بجيب الخوري وبصلّيها ـ وخلِصتْ المسأله . اسمعي مني تاروح ورا الخوري اليوم واشرح له السيره . وانا بتكفّل انه بيصلّي . بدّك احسن من هيك ؟

ام الياس   وبلكي رجعت هالبنت وسخنت وماتت ـ لا سمح الله – ايش بيقولوا عني الناس ؟

موسى   شو بدّك بالناس . يحكوا تاينشقّوا . انت عليك تدوّري عا صالح بنتك . هيك يمّا لا ؟

ام الياس   هادا مأكّد .

موسى   ساعتها ليش الرايح والجايي – خليني روح ورا الخوري وانا بتكفّل لِك انه اذا صابني شي ها البنت بيصيبها شي . بدّك اكتر من هيك ؟ علي . انا كفيل ضمين انه ها البنت ما بيصيبها عطب .

ام الياس   اوف . اوف . ما بعرف ولا بدري . قلبي ناقزني . الله يسترني ويهوّنها علي .

موسى   قلت لك انا كفيل ضمين . من ايش فزعانه بعد؟

ام الياس   انا فزعانه حط هالبنت بذمتي . لكن اذا كنت

بتكفل انه ما بيخسها شي عمول بمعرفتك . انا بروح بحاكيها كلمتين ، بلكي بتقنع مني .

موسى « ينهض » فإذن أنا رايح . عن قريب بردّ عليك خبر ومنشوف شو منعمل . « يذهب نحو البوابة ويخرج »

المشهد الرابع

ام الياس – زينة – شهيدة

ام الياس انا ريتني ما كون . ان كان هالبنت بيعود يخسها شي ، ايش بيعود يخلّصني من لسانات النـاس ؟ « تنهض وتذهب نحو البيت . تلتقي بزينـة وشهيدة آتيتين نحو التفاحة فتأخذ زينة بيدها وترجع الثلاث الى المقعد . زينـــة وام الياس تجلسان . شهيدة تبقى واقفة »

زينة هل انصرف هذا الشيطان من هنا يا امي ؟

ام الياس عيب يا بنتي ، عيب . ما اسموش الا رجال ختيار ومنشاف بين الناس .

زينة عيب ان ندعو الشيطان شيطاناً ؟ هذا ليس شيطاناً

بسيطاً يا امي. هذا شيخ الشياطين. الم تسمعي باذنك ما قاله عن داود وشهيدة ؟ لولاه لما جرى لي ما جرى ولما احتملتِ ما احتملتِه من العذاب لاجلي.

ام الياس يا بنتي شو لنا عند العالم؟ انسان بدّه صالحنا. مِنْ قول له — ديّات بيّك ؟

زينة هذا العفريت يريد صالحنا ؟ ما ابسط قلبك يا امي! هذا لا يفتش عن صالح احدَ سوى صالحه. لا يهمه احد في الدنيا سوى نفسه. اتظنين انه يطلبني لابنه حباً بابنه او بي ؟

ام الياس لكن ليش يا بنتي ؟

زينة أو. أمي. أمي! « تضحك » اني اعرف اشياء كثيرة لا تعرفينها. هذا المحتال قد اثقلت ظهره الديون. ابنه مديون وهو مديون وبيته مرهون. فهو يريدني حباً بدراهمي وليس بي او بابنه. ويريد ان يفي ما عليه من الدين قبل ان يبيعوا بيته ويضعوا ابنه في السجن. نعم هذا اكبر خداع ومداجٍ في العالم.

ام الياس اسمعي ايش بتقولي. موسى بيك مديون ؟ هادا ما بيصير.

المشهد الخامس

ام الياس – زينة – شهيدة – خليل

خليل « يدخل من الباب الى الحديقة راكضاً ومنادياً »
وين رحتوا ؟ زينة ! الياس ! أمي ! وينكم ؟

زينة هنا . هنا يا خليل . « الى امها » هذا صائر يا امي.
وسينكشف عن قريب .

خليل « مقترباً من التفاحـــة » ولك وينكم؟ « يراهنّ »
عرفتوا ؟ عرفتوا ايش صار ؟

شهيدة ماذا ؟ ماذا ؟ هل حدث مكدر لالياس او داود ؟
ماذا ؟ عجِّل !

خليل « مقهقهاً » ولَكْ البيك البيك. بيكنا . حبسوه...

زينة « تثب عن مقعدها وتعانق خليلاً متهللة » موسى
بيك او ناصيف بيك ؟

خليل ناصيف بيك . ناصيف . قه . قه . قه . العسكري
يقول له : تفضّل عا الحبس وهو يغني – « البوكر
قرّح لي قلبي » . قه . قه . قه . قه .

ام الياس ولك عن تضحك يمّا عن جدّ ؟

خليل	عن بضحك ؟ ريتني اضحك انا وكل أهلي ان شاالله — وايش بعمل ؟ ببكي ؟ شي بضحك غصب . قاعدين كنا اربعتنا بقهوة الجسر شربنا هلي شربناه وعن نلعب دق بوكر . ناصيف بيك مكيّف — ربحان شويه. لا عنده ولا عند باله. والاّ جاني عسكريين : « مين منكم ناصيف بيك العركوش؟» ناصيف قال « انا » خمّن جايتو عزيمه من القائمقام . « تفضل عا الحبس » ليش ما ليش ؟ قالوا « دعوة مداينية . بالمحكمة بيخبروك ليش » . اجا بدّه يحكي طالع نازل — سحبوه متل الكلب . ساعتها ما عاد فتح تمّه . قه . قه . قه . يا حوينتك يا ناصيف بيك . البوكر قرّح لي قلبي ! قه . قه . قه .
زينة	« بفرح الى امها » الم اقل لك يا امي ؟
خليل	هادا ما هو شي . الضربه على بيّه اللي عن يبيعوا له بيته بالمزاد . على أونا . على دوّه . الليله يمّا بكرا بيكحتوه من بيته متل الكلب .
ام الياس	« بدهشة كلية » موسى بيك ؟
خليل	اي . اي . موسى بيك ما غيره . موسى بيك بو قرعه .
ام الياس	« ضاربة رأسها بيدها » تنكحري يا بنت العرموني !

ولك موسى بيك هلـّق كان هون .

خليل هلـّق كان هون وهلق راح يحضر بيع بيته .

ام الياس « تمشي صوب البيت » سبحانك يا ربي في ملكك . هالدني كيف هي مركبه شكل .

خليل « يتبعها » مـا عليش يا امي . ما عليش . صعبت عليك ؟ ياما بيجي من الله . « يخرج الاثنان »

المشهد السادس

زينة — شهيدة

زينة « تعانق شهيدة بفرح وبلهفة » شهيدة ! شهيدة ! لماذا لا ترقصين ؟ لماذا لا ترتلين ؟ لماذا لا تقولين شيئاً ؟

شهيدة وماذا اقول ولساني لا يتحرك مـن الفرح ؟ قلبي يرقص وقلبي يرتل .

زينة « تهزها من كتفها » شهيدة ! طفح قلبي . طفح قلبي بالفرح . صلـّي . قولي معي « نشكرك يا رب ! » اتدرين ماذا يعني كل هذا ؟ أو — شهيدة ! لماذا لساني قصير ؟ لماذا لا اقدر ان اقول ما احب ان اقوله؟ شهيدة ! حبيبتي ! لولاكِ لما كنت واقفة الآن هنا أرتجف من الفرح . لولاكِ لمـا عشت لارى هذه

اللحظة واتمتع بهذه السعادة. « تقبلها » شهيدة ألستِ سعيدةً مثلي ؟

شهيدة مثلكِ واكثر. سعيدة بسعادتي وسعيدة بسعادتك. لكني ، لشدّة فرحي ، قد ارتبط لساني . واخاف اذا تكلمت ان تفلت مني سعادتي كما يفلت عصفور من قفصه .

زينة وانا احب ان اسكت كذلك – لكن لا اقدر . لساني يتحرك رغماً عني. واذا سكت لساني تكلمت عيناي ويداي وكل اعضاء جسدي .

شهيدة لا تنسي انك لا تزالين في طور النقاهة وان التهيُّج يؤثر بك .

زينة تهيُّج كهذا ينفع ولا يضر يا شهيدة . وإذا جاء الموت بسببه فاهلاً بالموت . لكن ، شهيدة . قولي لي بحياتك كيف يقدر الناس ان يكونوا مثل موسى العركوش وابنه ؟ لو لم اقاسِ من هذين النذلين ما قاسيته من العذاب لما ابغضتهما ، ولما دخل البغض قلبي على الاطلاق . اني ابغض البغض .

شهيدة البغض في وقته فضيلة كبيرة كالمحبة يا زينة . في العالم اناس محبتهم جريمة – وموسى بيك وابنه منهم.

وفي العالم اناس بغضهم اثم – وانت واحدة من هؤلاء الناس .

زينة ستعجبين اذا قلت لك اني في هذه الدقيقة ، في هذه اللحظة ، شعرت بألم في قلبي . اتصدّقين ان قلبي انقبض شفقة على موسى العركوش وابنه ؟ أوْ شهيدة ... « ترتجف » قولي ما شئتِ ، وادعيني ما شئتِ ، فانا لست مالكة عواطفي . احب ان ابغض والآن ادركت انني لا استطيع أن ابغض. بماذا تفسرين ذلك ؟

شهيدة اذا سألتِ الياس او داود فقد يحللان ذلك لكِ .
« الياس وداود يدخلان الحديقة من الشارع راكضين»

المشهد السابع

زينة – شهيدة – الياس – داود

زينة « اذ تراهما » اذكر الذيب وهيي القضيب. « بأعلى صوتها » داود ! الياس ! نحن هنا . نحن هنا .

الياس « يقترب منهما لاهثاً من التعب » اين امي؟ اين امي؟

زينة في البيت . ماذا جرى ؟

الياس	ألم تسمعا بالخبر ؟ ألم تعرفا الى الآن مـاذا جرى ؟ قصّ عليهما ماذا جرى يا داود . اخبرهما ماذا حلَّ بهذا اللئيم وابنه .

شهيدة	العركوش وابنه ؟

الياس	اي . هل اخبركم احد ؟

زينة	اخبرنا خليل .

الياس	اذن ماذا ننتظر بعـــد ؟ اين امّي ؟ في البيت ؟ «يركض نحو البيت» شهيدة ! شهيدة ! تعالي معي. تعالي معي . سنحاصر امّي الحصـار الاخير واظنها تسلّم بدون معارضة. «شهيدة تنهض وتتبعه»

المشهد الثامن

زينة – داود

داود	«آخذاً بيد زينة» كيف تشعرين الآن ؟

زينة	داود ! داود ! لا ادري كيف اشعر وبماذا اشعر. في كل حياتي لم اشعر بما اشعر به اليوم. احب ان ارقص . احب ان اركع واصلّـي . احب ان اغنّي . احب ان اقبّل هذا الحجر ، وان اعانق

هذه الشجرة ، وان احدّث ذلك العصفور ، وان اضع كل هذه الازهار، وكل السماء، وكل الارض في قلبي . يخيّل اليّ اني قريبــة من الجنون . هل انت فرِح مثلي؟ « تضع يدها على كتفه وتنظر في عينيه »

داود «باسماً » الا تخجلين ان تسأليني مثل هذا السؤال؟ انظري الى عيــنيّ . انظري الى حاجبيّ . انظري الى فمي . ضعي يدك هنا « يأخذ يدهـا ويقبلها ثم يضعها فوق قلبه » هل تريدين خطيباً افصح من هذا الخطيب ؟ « يقبل يدها ثانية »

زينة «آخذة يديه بين يديها » أوُ ، داود ! وكل ذلك من اجل ابنة جاهلة ، ضعيفة مثلي ؟

داود وكل ذلك من اجل ملاك طاهر مثلك .

زينة اتذكر عندما قلت لي لاول مرة «احبك يا زينة»؟ قلها مرة بعد .

داود احبك يا زينة .

زينة بعد .

داود احبك يا زينة . احبك يا زينة . احبك يا زينــة . « يقبل يدها »

زينة « تضحك واضعة يدها على فمه » يكفي . يكفي . اخاف اذا اكثرت من اعادتها أن تنسى معناهـــا وتعيدها كالببغاء .

داود هل حدّثتِ امك في الامر بعد ؟

زينة لم يبقَ خوف مـن امي . خبر افلاس العركوش سقط عليها كالصاعقـة . لكن كبرياءها تأبى عليها الاعتراف بذنبها نحونا . فالاحسن ان نتحاشى كل ما من شأنه ان يجرح كبرياءها . « يظهر الياس وشهيدة في الباب خارجين الى الحديقة وسائرين نحو التفاحة »

داود ارى الياس وشهيدة راجعين بدونها . فما السبب ؟

زينة لعلّها تأتي عمّا قريب ، ألا تعجب كيف انقلب الياس – كيف كان وكيف اصبح اليوم ؟ وشهيدة كانت سبب انقلابه العجيب كما كنتَ سبب انقلابي . « الى الياس وشهيدة وقد اقتربا » اين امي ؟

المشهد التاسع

زينة – داود – الياس – شهيدة

الياس جالسة في غرفتها تبكي وتلطم خدّيها .

زينة « بدهشة » تبكي ؟

الياس	قبلت يديها ورجليها . توسلت اليها ان تخرج معنا الى الحديقة . فكانت تبكي وتقول : « روحوا اعملوا اللي بدكن اياه . انا ريتني ما كون . » اذهبي اليها انتِ وداود لعلها تستجيب لكما وتخرج معكما . « زينة تأخذ داود من يده وتسير نحو البيت »

شهيدة	ما اغرب اطوار امك ! اتصدّق اني لم ارَ دموعها حتى اليوم ؟ وما اشدّ تأثير دمعة من عين امرأة جبّارة ، مستبدة كأمك . « تجلس على المقعد »

الياس	« واقفاً » لعلها تكفّر بهذه الدموع عن هفواتها السابقة . لكن دعينا من الدموع الآن . فلا دموع امي ولا بحار مثلها بقادرة ان تعكّر كأس سعادتي. « بحرارة » شهيدة ! « يأخذ يديها بين يديه وينظر في عينيها » انتِ لي الكل بالكل في هذا العالم . شهيدة ! كنت اعمى فابصرت . وحبك كان النور في عينيّ . « يضع يدها اليمنى ثم اليسرى على فمه ثم يجلس بجانبها » شهيدة ! ما اجمل الحياة !

شهيدة	« تقهقه مخرجة من جيبها ورقة ثم تقرأ بتمهل » « بتاريخهِ نحن الموقعين في ذيله قد تعهدنا ان نضع

حداً لحياتنا بواسطة المشنقة ... » « تضحك »

الياس « يخطف الورقـــة من يدها بلطف باسماً » ألا يكفيكِ هزأً بي حتى تذكريني بجنوني في مثل هذه الدقيقة التي احسبها بدء حياة جديدة ؟ كأنّ دهراً قد مرّ من يوم كتبت هـذه الورقة حتى اليوم . لندفن الماضي . « يمزق الورقـــة نتفاً نتفاً » فانا اتعهد الآن على نفسي ان اشنق كل من لا يرى في الحياة سوى اشواكها وكل من يفرّق بين قلبين يربطهما حبّ كحبنا . « تظهر في الباب ام الياس وقد اخذت زينة بيدهـــا اليمنى وداود باليسرى وخليـــل يمشي وراءهم والكل يسيرون نحو الياس وشهيدة »

المشهد العاشر

الياس – شهيدة – زينة – داود – ام الياس – خليل

شهيدة « مازحة » أوَتشنق امّك كذلك اذا اصرّت على رفضها قبول اتحادنا ؟ « اذ ترى ام الياس قادمة » ها هي قادمة نحونا – فماذا تفعل اذا اقتربت مني

وصاحت : « اغربي عن وجهي » ؟ « تبسم »

الياس انا اكفل رضاها. انا اعرف كيف ارضيها الآن.

زينة « وقد اقتربت مع الباقين من المقعد . الى امها » اجلسي يا امي ، يا حبيبتي ، فقد تعبتِ . « تجلس بلطف وحنو . الياس وشهيدة ينهضان »

ام الياس « تتنهد تنهدة عميقة وآثار الدموع باقية على خديها »

اوف ... اوف ... لا بعرف ، ولا بدري ...

الياس « الى امه ، بعد سكوت قصير » اسمعي يا امي . كثيراً ما تمنيت لو لم تكوني امي . وكثيراً ما تمنيت لو لم اكن ابنك . حتى لقد كرهتك بسبب انقيادك الاعمى للعركوش وقساوتك على زينة . « ام الياس تبكي »

زينة « مبكتة » الياس ! الياس ...

الياس ما لنا وللماضي يا امي . اليوم يجب ان تضحكي وترقصي وإن كنتِ عجوزاً . فابنك الياس كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوجد . ولم يقمه من الاموات ، ويردّه اليك إلاّ هذه الروح النقية الطاهرة . « يأخذ شهيدة من يدها ويجذبها الى

الامام . امّ الياس تتنهد » ولولاها لما كان ابنك الياس من الاحياء . لذلك اطلب اليكِ ان تباركيني وتباركيها ، وان تقبليها بمثابة ابنتك الثانية . « يركع مع شهيدة امام امه »

ام الياس « متنهدة وباكية » ايش مني ومن بركتي انا ؟ الله يباركم يا ابني . « تضع يدها على رأسيهما . الياس وشهيدة ينهضان ويقبلان يدها »

الياس سترين منّا ما يفرح قلبك ويجعل آخرتك سعيدة يا امي .

ام الياس ان شا الله بتعيشوا العمر كله يا بنيّي . « سكوت »

داود « متقدماً نحو ام الياس » والآن قد جاء دوري يا أم الياس . ام تسمحين ان ادعوكِ امّي ؟ انا اعرف انك أبغضتني من اول يوم رأيتني في بيتكم . وزاد بغضك لي لمّا علمتِ ان زينة تحبني واني احبها . ابغضتني لانكِ ظننتني كافراً . انا مؤمن يا امي وان كنت لا اصلّي في معبد . لااسرق ، ولا اقتل ، ولا ازني ، ولا اشهد بالزور . فأسألك باسم الذي تعبدينه ان لا تبغضيني فيما بعد . لا تبغضيني لأني اريد ان اجد فيك امّاً فقدتها من

زمان. حسبتني فقيراً وما انا بالفقير . عندي عزم، وعندي محبة ، وعندي قوّة ، وعندي عزّة نفس ، وعندي قليل من العقل . وابغضتني لأن لا حسب لي ولا نسب . نسبي وحسبي – انا ، لا غيري . ولا اريد ان البس وساماً من الشرف منحوتاً من عظام آبائي واجدادي . حَسَب العركوش ونسبه لم يخلّصاه من السجن. اذا كنتُ اسأت اليكِ بشيء فارجو المعذرة . وارجو أن ترضي بي رفيقاً لزينة . فهي راضية بي. « ام الياس تبقى صامتة مطرقة بالارض » اني اطلب رضاكِ على الاخص لاجل زينة . فهي تحب ان تبقى تحت جناحك ما دام لها الى ذلك سبيل. واطلب رضاكِ لنفسي كذلك لأني، كما قلت ، احب ان اجد فيكِ اماً ثانية .

زينة « تجذب داود من يده وتركع أمام امها فيركع داود بجانبها » امي ! امي ! باركينا .

ام الياس « بعد سكوت وتردّد تباركهما باكية » الله يكون معكم يا بنيّي الله يبارككم. « داود وزينة ينهضان ويقبلان يدها »

زينة «تنطرح على عنق امها» امي ! امي ! ما أحسنك عندما تكونين راضية ! ابقي هكذا دائماً. «تعانق شهيدة» شهيدة ! حبيبتي !

خليل «يقع على ركبتيه أمام امه ويُخرج من جيبه قنينة عرق. يرفعها في يده قائلاً» امي. امي. باركينا. انا لا بقدر عيش بلاها ولا هي بتقدر تعيش بلايي. «الحضور يقهقهون. الياس يأخذ امه من يدها ويمشي معها ومع شهيدة نحو البيت. داود وزينة يتبعانهم»

خليل «متكئاً على عصاه» كل مِنْ حبيبه عنده. وأنا بيبعت لي الله. «يبرم العصا في يده» إي. داود! داود ! «داود يلتفت الى الوراء» عاوزك بكلمه. «داود يرجع اليه»

داود ما لك ؟

خليل «ضارباً بيده اليسرى كتف داود اليمنى» حط ايدك هون ! «يهز يده» عندك نقفة دين عروس روح جوّات سبع بحور ما بتلاقي متلها. زينة ما حدا لبق لها غيرك. عيش بصحايفك. انا مبسوط لك من كل قلبي. «بعد سكوت قصير» وَينك ؟ ولو طلعت تِقْله — معك تقرضني شي ليره — ليرتين —

الليلـه بردلّك ياهم فايض المايه مايه . عيب بهـا الشوارب إن ما ردّيت لكش ياهم . «يمسك شاربيه»

داود لكن خليل ...

خليل «يقاطعه» لا تقول لي كاني ماني – وحياة شواربك وشواربي هي آخر مرّه . شو مخمني انا ما بعرفش عيش بلا لعب قمار ؟ بكرا بـدوّر لي عاشي بنت حلال متلك وبتجوّز – لا بعود بسكر ولا بعود بلعب – قلت لك وحياة شواربك .

داود «يخرج محفظته ويناوله بعض النقود» هذا ما اقدر ان اعطيك الآن – ويا ليتك تبرّ بوعدك ، وتترك القمار . «يتبع الباقين»

خليل عيش وحدك . شاباش لعيونك . «يقف برهـة حائراً . ينظر الى الدراهم تارة ثم يخرج القنينة من جيبه وينظر اليها اخرى ويغني» كلّ مِنْ حبيبه عنده – وأنا بيبعت لي الله !

السّتار

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
لقاء
الاوثان
صوت العالم
مذكرات الارقش
النور والديجور
في مهب الريح
مرداد « بالانكليزية »
جبران خليل جبران « بالانكليزية »
مذكرات الارقش « بالانكليزية »